نادين جورديمر

العالم البرجوازي الزائل

ترجمة سمير عبد ربه

العالم البرجوازي الزائل

تأليف
نادين جورديمر

ترجمة
سمير عبد ربه

هنـــداوي

العالم البرجوازي الزائل

The Late Bourgeois World

نادين جورديمر

Nadine Gordimer

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩ ٣٣٢٣ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الإنجليزية عام ١٩٦٦.
صدرت هذه الترجمة عام ٢٠٠٢.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الأستاذ سمير عبد ربه.

المحتويات

تقديم	٧
الفصل الأول	١٩
الفصل الثاني	٣١
الفصل الثالث	٤١
الفصل الرابع	٥٧
الفصل الخامس	٦٥
الفصل السادس	٧٣
الفصل السابع	٨٥

تقديم

الرواية في جنوب أفريقيا

• إن تعدد الأجناس والثقافات بالإضافة إلى تسلط الأقلية البيضاء التي تنتهج سياسة التمييز العنصري (الأبارتايد) يجعل الحديث عن الإبداع في جنوب أفريقيا بشكل عام — وعن الحركة الروائية بشكل خاص — مختلفًا بعض الشيء عن مثيله عند بقية الشعوب؛ إذ تشكل هذه المنطقة من العالم مرتعًا خصبًا للمبدعين، لما تموج به من تناقض غريب وصراع مرير، وأيضًا لغياب الحد الأدنى من الحرية التي تُغذي الكتابة والفن.

عرف الغزاة البيض من البريطانيين والهولنديين طريقهم إلى جنوب أفريقيا في النصف الأخير من القرن السابع عشر مع بداية الحركة التجارية عبر الطرق الساحلية، وسرعان ما استقروا في المنطقة، وقد أطلق الهولنديون على أنفسهم اسم «البوير» Boer[1] للفصل بينهم وبين أمثالهم من البيض البريطانيين، وفي عام ١٨٠٦م استولى البريطانيون على مدينة كيب بالقوة من البوير، فورثوا السلطة وسيطروا على ٨٠٠٠٠ من السكان، يمثل البيض منهم ٢٦٠٠٠ فقط.

ومنذ الاحتلال البريطاني حتى منتصف القرن التاسع عشر كان البريطانيون والبوير يتعايشون معًا في جوٍّ من الشك المتبادل نظرًا لطموحات كليهما السياسية والثقافية المختلفة، فانعكس ذلك على السكان الأصليين حيث ساد مزيد من القهر العسكري

---

[1] البويري Boer: شخص جنوب أفريقي من أصل هولندي وجمعها بوير.

والنهب الاقتصادي. ومع اكتشاف الثروة المعدنية عام ١٨٧٠م حدث تحول كبير، فسادت الرأسمالية وبالتالي تفاقمت حدة الصراع بين البريطانيين والبوير حتى نشبت الحرب بينهما في مطلع هذا القرن، فأصبح النظام السياسي في البلاد أكثر تعقيدًا، وحينئذٍ أطلق البوير على أنفسهم اسم أفريكان Afrikaner[٢] طمعًا في تحقيق السيادة على المجموعات الأخرى.

وفي النهاية نجحت حكومة الأقلية البيضاء في وضع السود والملوَّنين — الذين يتطلعون نحو الحرية — تحت مظلة الاستعباد والسيطرة.

• بعد هذه الإطلالة التاريخية الموجزة، والتي تعد مدخلًا ضروريًّا للحديث عن الأدب والرواية في جنوب أفريقيا نجد أن الروائيين في تلك الفترة كانوا يكتبون عن النباتات والحيوانات الموجودة في المنطقة بطريقة شبه علمية، وفي أحسن الأحوال لم تكن أعمالهم تتجاوز تلك الحكايات الرومانسية التقليدية الخالية من المضمون والمعنى، كما في رواية «كاري هوبسون» المكتوبة عام ١٨٩٧م بعنوان «عبيد أو لا عبيد»، والتي تتناول قصة فتاة من العبيد ينتهي بها الأمر إلى أن تصبح وريثة لأحد الرجال البرتغاليين ... كذلك رواية «آرن بيج» الصادرة في نفس العام بعنوان «انطلاقة بعد الظهر An afternoon Ride» وتحكي عن بطل وبطلة من الفيكتوريين[٣] فخورَين بنفسيهما، وعندما يحب كلاهما الآخر يواجهان عقبات كثيرة، يستطيعان — بفعل قوة الحب — أن يتغلبا عليها في النهاية.

لكننا حين ننتقل إلى البدايات الأولى من القرن العشرين، وبالتحديد عام ١٩٠٠م نجد أن حرب الأنجلو–بوير أو حرب الأفريكان قد أثرت قليلًا في تطور الرواية بجنوب أفريقيا، فنرى الكاتب «هارولد بلور» في روايته «الفارس الماهر An Imperial Light Horseman» يصف الهجرة الجماعية من جوهانسبرج إلى ناتال وذلك الحصار الناتج عن الحرب، ولكن بطريقة سردية وواقعية دون أن يتوفر في الرواية أي محاولة من محاولات الخلق تمامًا كما حدث في رواية «ستيف الغريب Stive The outlander» للروائي «آرثر ليكوك» الصادرة أيضًا عام ١٩٠٠م.

يأتي بعد ذلك «أوليف شرينر» (١٨٥٥–١٩٢٠م) و«بولاين سميث» (١٨٨٣–١٩٥٩م)، فتتسم الرواية على أيديهما بروح الخلق والإبداع حتى نصل إلى مرحلة النضوج

[٢] أفريكاني Afrikaner: شخص جنوب أفريقي من أصل أوروبي. (المترجم)

[٣] فيكتوري: أحد أبناء عصر الملكة فيكتوريا (١٨٣٧–١٩٠١م). (المترجم)

الروائي في الفترة ما بين الحرب العالمية الثانية ونهاية الستينيات، والتي ما تزال تواصل نضجها حتى الآن وبشكل أكثر تفرُّدًا خاصة بعد أن ترسخت أقدام حكومة الأقلية البيضاء التي كان من نتائجها ظهور الحركات النضالية من أجل المساواة والتحرر فاتجه الكتاب في أعمالهم إلى مناهضة سياسة التمييز العنصري (الأبارتايد) والتنديد بالأفريكان والمطالبة بحق السود في حياة كريمة، كما في رواية «آلان باتون» «بكاء الوطن المحبوب Cry The beloved country» (١٩٤٨م)، ورواية «الفالاروب المتأخر Too late phalarope»[٤] (١٩٥٣م)، ثم أعمال الروائي «جاك كوب»؛ وأهمها:

- «الطائر الذهبي The Golden bird» (١٩٠٨م).
- «الطريق إلى يستربرج The Road the yesterberg» (١٩٥٩م).
- «صانع المطر The Rainmaker» (١٩٧١م).
- وأخيرًا «طالب زند The Student of Zend» (١٩٧٢م).

بالإضافة إلى كثير من الروايات السابقة واللاحقة التي نحاول أن نتعرض لأهمها وأكثرها تعبيرًا عن ذلك المناخ المتفرد والصاخب الذي تموج به جنوب أفريقيا، والذي لم يجد فيه المبدعون سوى الرواية وسيلة للتعبير عن قضاياهم؛ إذ إن الأشكال الأدبية الأخرى قد لا تسعفهم في التعبير عنها بطريقة مشبعة، والجدير بالذكر أن تلك الروايات في معظمها وإن لم تكن جميعها تتسم بالاحتجاج والرفض الكامل لمختلف أشكال القهر والعنصرية مع الحلم الكبير بوطن حر مستقل.

• نبدأ بالكاتبة الروائية «بيسي هيد Bessie Head» التي قالت قبل نشر أي رواية لها: إذا كان لا بد أن أكتب في يوم ما، فإنني سأقول دائمًا إن البشر هم البشر دون اعتبار للون بشرتهم.

وهكذا نتعرف منذ البداية على مشاغلها والقضية التي تؤرقها وسط جو زاخر بالتفرقة بين الناس على أساس اللون.

وُلدت «بيسي هيد» في مدينة «بيترمارتيزبورج» عام ١٩٣٧م من أصل مختلط ثم انتقلت إلى كيب تاون، حيث عملت بالتدريس والصحافة، وتعيش الآن في بتسوانا وفرانسيس تاون مع ابنها.

[٤] الفالاروب: طائر صغير يعيش على الشواطئ. (المترجم)

كتبت أول رواية لها تحت عنوان: عندما تتجمع السحابات المطرة when rain clouds gatter ومثل كل أعمالها اللاحقة، فإن تجربتها الشخصية تسيطر على مسار الرواية، فنرى «ماكايا سيكو» الذي يغادر جنوب أفريقيا إلى بتسوانا بعد تورطه في نشاط سياسي مناهض للحكومة، وتلك المعاناة التي يلقاها السود وردود أفعالها عليهم كما في حديث «ماكايا» إلى صديقته القديمة: «هل تفهمين من أكون؟ ... إنني ماكايا الكلب الأسود الذي تقذف به الحياة ... إن الحياة مزيج من العذاب والألم، وقد لا تكون شيئًا على الإطلاق، حتى إنني لا أرغب في محاولة فهمها.»

ثم يحاول تفسير معنى الكلب الأسود فيقول: «إنه مجرد إحساس ... إن أولئك البيض معتادون على سلوكنا الغريب وحين نرتجف من سياطهم ويصيبنا الفزع تنتابهم سعادة بالغة لأننا بالنسبة لهم لسنا سوى كلاب سوداء على هيئة بشر ... إنهم يضحكون علينا وعندما نتحول إلى كلاب مجنونة يضحكون بصوت أعلى.»

لم تستطع صديقته المسيحية الطيبة أن تفهم شيئًا مما قاله فقد كانت واحدة من الذين عاشوا حياتهم داخل جلدهم الأسود في هدوء، فقالت لتخفيف حدة الكراهية لديه: «أنت لست كلبًا أسود ولا يجب أن يخدعوك بضحكاتهم ... إنني لا أعرف أولئك الناس البيض، لكن إيماني علَّمني أن الحياة عبارة عن حريق كبير يولد فيه الناس أجمعين إلى أن يحين موعد إغلاق المحل.»

في الروايتين التاليتين «مارو Maru» و«مسألة قوة Aquestion of Power» تأخذ السيرة الذاتية شكلًا أعمق، فنرى «مارجريت» في رواية «مارو» تنتمي مثل «بيسي هيد» إلى مجموعة الأقلية المضطهدة، وحين تعرض على صديقها «ديكيليدي» بعض رسوماتها فإنه يسألها: كيف رسمت كل هذا؟

فتقول المؤلفة: «استدارت مارجريت وابتسمت؛ إذ لم يكن بمقدورها أن تشرح له عذاب تلك الأيام.»

ثم تستطرد: «لقد تعلمت مارجريت الرسم لأن شيئًا ما بداخلها كان أكثر قوة من قدرة جسدها على الاحتمال ... لقد تعلمت الرسم من أجل أن تحتمل ومن أجل أن تكبح عواطفها طمعًا في حياة يمكن احتمالها.»

وعندما يتزوج الشاب «مارو» من «مارجريت» يعد ذلك انتصارًا عرقيًّا غير أن الناس في قرية «مارو» يعبرون عن رفضهم لذلك الزواج المختلط، ويتحدثون عن «مارو» وكأنه قد مات ثم تشرح العاهرة المريضة «ديليب» موقفهم وتقول: «إنها مجرد نزوة!»

بينما يرى أهل «مارجريت» وقبيلتها أن الباب قد انفتح بهدوء على حجرة صغيرة مظلمة خالية من الهواء كانوا يعيشون فيها منذ زمن بعيد، وأن رياح الحرية تدفقت داخل الحجرة، وتستطرد «هيد» حتى تقول: «لقد استيقظت إنسانيتهم.»

إن «بيسي هيد» التي ترفض كل ما يحدث في جنوب أفريقيا وتحلم بالتغيير عن طريق تبادل الحب بين الأجناس البشرية ترى في ذلك الزواج طريقة للعيش بين الناس في سلام بعيدًا عن لون بشرتهم.

أما في رواية «سبيل القوة» فإن «إليزابيث» لا تختلف كثيرًا عن «بيسي هيد» نفسها، فهي أيضًا تعمل بالتدريس وتشتغل بالسياسة، ونرى «إليزابيث» وقد غادرت جنوب أفريقيا في الرواية كما فعلت «هيد» في الواقع، كما أنها تعاني من حالة اغتراب شديد وإحساس بفقدان الجذور، وتعبر المؤلفة عن ذلك في بداية الرواية على لسان «سيلو»: «إنني مجرد أي شخص.»

إن رواية «سبيل القوة» تعد من أنضج أعمال «هيد» ففيها — رغم التشابه الذي أشرنا إليه — تتحرر من عبء السيرة الذاتية والسرد الوقائعي لحياتها وتستخدم الرمز وتنتقل إلى شخصيات أخرى تمثل مختلف القضايا الأخرى.

• قبل التعرض للكاتبة «نادين جورديمر» صاحبة هذه الرواية التي بين أيدينا تجدر الإشارة إلى أنها ليست الكاتبة الأفريكانية الوحيدة التي تناولت في أعمالها مختلف أشكال القهر والعنصرية، وإنما هناك أعمال قصصية وروائية وشعرية ومسرحية مختلفة لمبدعين آخرين من البيض تناولت نفس الأفكار والوقوف إلى جانب السود والتعاطف مع قضيتهم ورفض سياسة التفرقة العنصرية، ورغم أن نادين جورديمر — بعد حصولها على جائزة نوبل عام ١٩٩١ — قد أصبحت أبرز أولئك الكتَّاب في الساحة الأدبية، إلا أن القارئ المحايد يجد صعوبة في إدراك ما ترمي إليه، كما أنه لا يشعر بعد قراءتها بالتعاطف والمتعة الكافيين كما يحدث له بعد الانتهاء من قراءة أحد المبدعين السود، ويرجع ذلك لسببين؛ أولهما: أن المبدع الأسود لا يستطيع أبدًا أن يتجاهل الحقيقة المتمثلة في كونه أحد أصحاب البلاد الأصليين، بالإضافة إلى ما يلقاه دائمًا من اضطهاد وعبودية ونفي واعتقال ومصادرة، فنراه يعبر عن واقع ملموس بأسلوب بسيط يتناسب مع أشكال الكتابة الأدبية التي تحمل قضايا وهمومًا وطنية.

أما السبب الثاني فهو أسلوب نادين جورديمر في الكتابة ... ذلك الأسلوب البالغ التعقيد والذي يفوت على القارئ قدرته على المتابعة، وبالتالي يفقده التعاطف المطلوب، وهذا الأسلوب وتلك التركيبات اللغوية بالغة الصعوبة هما السبب — على ما أعتقد — في

إحجام المترجمين عن التصدي لترجمة أعمالها الكثيرة على العكس مما حدث مع أعمال كل الحاصلين على نفس الجائزة من قبلها.

يذكرنا السبب الأول بضرورة الإشارة إلى اثنين من أهم المبدعين السود في جنوب أفريقيا وأكثرهم تميُّزًا، ألا وهما «أليكس لاجوما» و«حزقيال مغاليلي».

وُلد «أليكس لاجوما» في مدينة كيب تاون عام ١٩٢٥م، وظل تحت الحراسة منذ عام ١٩٦٢م حتى غادر البلاد مع عائلته عام ١٩٦٦م، وكان ممنوعًا من الدخول بسبب أنشطته السياسية.

تتميز أعمال لاجوما القصصية والروائية بالغوص في أعماق الناس وإظهار معاناتهم، وتسيطر عليه فكرة الأرض واللون والحركات النضالية والرفض الكامل لسياسة التمييز العنصري، وتكمن قوة كتاباته في البناء المحكم البسيط والواقعية المتمثلة في الفعل والشخصيات.

في رواية «شرود في الليل Awalk in night» الصادرة عام ١٩٦٧م يصف كآبة ووحشة المكان الغارق في الحب، ويتعرض لأساليب النضال عبر حافة جبل مرتفع بقوله: «ننشب مخالبنا في الصخور من أجل موطئ قدم، ونتنفس بصعوبة ذلك النسيم القادم من الشمال الشرقي.» ويعبر عن معاناة الناس بقوله: «إنهم يشعرون بالنسيم في بيوتهم الخانقة من خلال الشقوق والنوافذ المهشمة.»

ونرى «جو» الذي يعشق البحر ويتخذ لنفسه فلسفة بسيطة في الحياة وهو يمضي في نهاية الرواية نحو البحر، حيث يمكنه التحايل على العيش فيقول: «المشي وحيدًا في الظلام المضاء بالنجوم.»

ثم يضيف «أليكس لاجوما» بأسلوبه الأخَّاذ: «في الصباح يصبح مشبعًا برائحة المحيط وينحني قريبًا من السطح الأخضر ليرى سعف النخيل وأعشاب البحر، ومن خلال الصخور يتفحص غموض الحياة في كائنات البحر المختلفة الرائعة، ويستمع إلى الموج القاسي وهو يصطدم بتلك الصخور.»

كتب «لاجوما» أهم الروايات التي تحتل مكانًا بارزًا في كيب تاون مثل رواية:

- «الحبل الثلاثي And The Three Fold Cord» (١٩٦٤م).
- « الوطن الحجري the Stone Country» (١٩٦٧م).
- «عندما ينقشع الضباب In The Fog of The Season's End» (١٩٧٣م).
- «زمن البوتشربيرد Time of The Butcherbird» (١٩٧٩م).

وأهم ما يلفت الانتباه في تلك الروايات هو ميلودراما الجريمة والعنف والاختطاف، وموت الأطفال في الحرائق، والاعتقالات والمنشورات السياسية. وتبدو كل شخوص «لاجوما» ضد النظام وتحتل التفرقة بين الأبيض والأسود مكانًا بارزًا في إبداعاته كما في رواية «الوطن الحجري» على سبيل المثال، حيث تصل التفرقة إلى داخل السجن أيضًا فلا المعاملة هي نفس المعاملة ولا الطعام هو نفس الطعام.

لا يفوت «لاجوما» تفسير السبب وراء القبض على السود والزج بهم داخل السجون إذا لم يكونوا من السياسيين فيقول: «إنهم يدخلون السجن نتيجة ليأس شديد من لونهم الأسود مما يجعلهم يرتكبون الجرائم.»

في رواية «عندما ينقشع الضباب» التي كتبها في المنفى يسود الضباب في نهاية الرواية وينتهي التمرد بموت إلياس حتى يخيل للقارئ أن «لاجوما» يمثل رؤية تشاؤمية نظرًا لنهاياته المنهزمة لكنه في الحقيقة متفائل بالغد لأنه يرى في عذابات إلياس الحرية في استمرار الآخرين، وهذه الاستمرارية هي ما تشغله أكثر من عذابات إلياس.

إن الحوار عند «أليكس لاجوما» مختصر ويوحي بالدلالة ودائمًا ما نجد أبطاله المنشغلين بالأنشطة السياسية يعرفون ما يفعلونه وما يفكرون به كما في رواية «الوطن الحجري»، حيث لا يشعر جورج آدمز بأي أسف لاعتقاله بسبب تهمة سياسية، ويعبر المؤلف عن ذلك بقوله: «لقد فعل الصواب من وجهة نظره وكان يعرف النتائج.»

قبل العودة إلى «نادين جورديمر» يتحتم علينا عند ذكر الإبداع والرواية في جنوب أفريقيا أن نشير إلى عميد الأدب الأفريقي كما يلقبونه هناك، والذي عانى مثل «أليكس لاجوما» من قسوة المنفى، ولقد عبر عن ذلك بقوله: «أريد أن أبقى على اتصال ببيئتي، فالكتابة خارج البلاد بلا معنًى، خاصة وأن القدرة على استرجاع الأحداث تصبح متعذرة بعض الشيء.»

إنه «حزقيال مغاليلي» المولود عام ١٩١٩م في بريتوريا، والذي غادر جنوب أفريقيا مع أسرته قاصدًا نيجيريا.

يتميز أسلوب «مغاليلي» بالبساطة الشديدة في تناول نفس القضايا الساخنة المشتعلة فوق أرض الواقع ولقد كتب كثيرًا من الأعمال القصصية والروائية، إلا أن معظمها تمت مصادرته، ولعل رواية «نزولًا إلى الشارع الثاني Down Second Avenue» التي بدأ بها الكتابة ١٩٥٩م هي أحد أهم أعماله رغم أنها سيرة ذاتية عن حياته في جنوب أفريقيا.

كتب «مغاليلي» رواية «المشردون The Wanderers» عام ١٩٧١م، وبعد ثلاث سنوات تلاها برواية «شيروندو Chirundu» إلا أنها لم تنشر إلا بعد خمس سنوات من كتابتها،

وكانت هي وروايته المبكرة «يجب أن يحيا الإنسان Man Must Live» هما الروايتان الوحيدتان اللتان تم نشرهما في جنوب أفريقيا على العكس من بقية أعماله التي نُشرت جميعها خارج البلاد. وقد حدث ذلك بعد تراجع الحكومة البيضاء عن قرار منع أعماله، فسارعت دور النشر بإضافة إبداعات عميد الأدب إلى قائمة الكتَّاب.

وفي مجال نقد الأدب الأفريقي كتب «مغاليلي» مجلدًا رائدًا بعنوان: «الصورة الأفريقية The African Image»

• يطول الحديث عن «لاجوما» و«مغاليلي» وأعمالهما الفريدة، ولنا معهما عودة في المقدمة التي ستتصدر رواية «أليكس لاجوما» «زمن البوتشربيرد. Time of The Butcherbird»[٥] والتي نوشك على الانتهاء من ترجمتها.

• وُلدت نادين جورديمر في ٢٠ نوفمبر عام ١٩٢٣م بمدينة سبورنجز في جنوب أفريقيا من أب هولندي، وتعيش الآن في جوهانسبرج، وكتبت العديد من الروايات:

- الأيام الكاذبة (١٩٥٣م).
- صاحب الحيازة (١٩٥٨م).
- عالم الغرباء (١٩٥٨م).
- مناسبة للحب (١٩٦٣م).
- العالم البرجوازي الزائل (١٩٦٦م).
- ضيف شرف (١٩٧٠م).
- ابنة برجر (١٩٧٩م).
- شعب جولاي (١٩٨١م).
- قصة ابني (١٩٩٠م).

كما صدرت لها المجموعات القصصية الآتية:

- وجهًا لوجه (١٩٤٩م).
- فحيح الأفعى الناعم (١٩٥٢م).
- ست أقدام من البلاد (١٩٥٦م).

[٥] البوتشربيرد: طائر من الفصيلة الصردية.

- آثار أقدام نهار الجمعة (١٩٦٠م).
- غير صالح للنشر (١٩٦٥م).
- شيء ما هناك (١٩٨٥م).
- نزوة الطبيعة (١٩٨٧م).

وقد تُرجمت أعمالها إلى عدة لغات، وكانت الحكومة العنصرية في جنوب أفريقيا — قبل حصولها على الجائزة — تمنع تداول أعمالها بسبب وجهات نظرها الجريئة ومقاومتها لسياسة التمييز العنصري.

وإذن فنحن أمام كاتبة غزيرة الإنتاج يستولي على إنتاجها موضوع أثير لديها، وهو الوقوف بشدة ضد سياسة الأبارتايد والاشتغال بالسياسة والمطالبة بالمساواة والحرية وإدانة المجتمع الأبيض، كما في هذه الرواية التي تعرِّي فيها ذلك المجتمع، فتقول على لسان جراهام: «إنهم يدعوننا بالعالم البرجوازي الزائل.» والجدير بالذكر أن الحكومة البيضاء قد صادرت هذه الرواية بحجة أن الشخصيات الرئيسية من البيض والسود غارقون في علاقات جنسية، غير أن السبب الحقيقي هو إدانة المجتمع الأبيض ... ذلك المجتمع القاسي الذي ينقصه الشعور والقدرة على التواصل، ليس فقط بين الأبيض والأسود وإنما أيضًا بين الأبيض والأبيض.

إن نادين جورديمر تريد أن تقول ببساطة في هذه الرواية إن البيض في جنوب أفريقيا قوم مجردون من الصفات الإنسانية، حتى إنهم يخافون من العيش كسائر البشر ويخشون التعامل بصدق مع أحاسيسهم لأنهم موافقون ضمنًا على العيش في ظل قوانين غير إنسانية.

إن المصادرة والنفي والاعتقال والتفرقة العنصرية هي الملامح الرئيسية في أدب جنوب أفريقيا، حتى إن الكتابة لدى مبدعيها تشكل ضرورة ملحة في مواجهة ذلك المناخ السياسي المعادي للإبداع، ولا شك أن نادين جورديمر واحدة من أولئك الكتَّاب الذين رأوا في الكتابة تلك الضرورة.

قال «وول سوينكا»: «لو أنه لا يوجد سوى شكل أدبي واحد وطريقة تواصل لغوية واحدة لأصابنا الفناء بفعل الضجر والملل.»

ولعل هذه المقولة تفسر تلك الضرورة وذلك التفرد الإبداعي الذي تتميز به القارة الأفريقية السوداء عمومًا، وجنوب أفريقيا على وجه التحديد.

قدرات مؤكدة ...
ولكن تحت أي حجر تختبئ؟

فرانز كافكا

الشجاعة والتحدي يتطلبان قدرًا من الجنون ...
تلك هي حكمة الحياة.

مكسيم جوركي

الفصل الأول

قرأت البرقية وقلت: لقد مات.

رفعت بصري فأدركت من نظرات جراهام ميلز أنه يعرف ما أعني ... كان ميلز قد التقى بزوجي الأول ماكس بضع مرات وسمع عنه كل شيء، كما أنه ساعدني في زيارته عندما كان في السجن.

مد يده إلى البرقية وقال بصوته العذب: كيف؟

قدمت له البرقية وقلت: لقد قتل نفسه.

قرأ جراهام ميلز: «تم العثور على ماكس غريقًا في سيارة بميناء كيب تاون.»

ثم قال: ومتى حدث ذلك؟

لم أكن أعرف شيئًا عن ماكس منذ أكثر من عام حتى إنه لم يتذكر عيد ميلاد بوبو في الشهر الماضي، فأجبت ببرود وغضب: الليلة الماضية وربما صباح اليوم.

أومأ جراهام برأسه في غضب وقال وهو يحدق بعيدًا عني: لم أتابع آخر الأخبار، وربما ينشرون الخبر في صحف الصباح.

كانت الصحف فوق المائدة تتوسط الأكواب المليئة بالقهوة إلى نصفها بجوار السجائر المشتعلة، وكان أحد أيام السبت التي لا أذهب فيها للعمل، والتي اعتاد فيها جراهام أن يأتي ويشاركني إفطاري المتأخر وقراءة الصحف كما يفعل المتزوجون القدامى ... كانت صفحة الأخبار الخاصة بالأحداث الأخيرة والطارئة ملقاة بجوار إبريق العسل، فقمت بقراءتها غير أنني لم أجد شيئًا سوى بعض التفاصيل المملة عن أهداف مباراة الجولف الدولية الأخيرة.

قال جراهام بعد الاطلاع على البرقية مرة أخرى: لماذا؟ ... إنها نهاية غير متوقعة لماكس.

شعرت باضطراب شديد وأجبت: بسببي!

لم يفارقني اضطرابي منذ اللحظة التي تسلمت فيها البرقية فلم أستطع الجلوس أو الوقوف في مكان واحدا، ولم يكن أمام جراهام إلا أن يتسلح بالصبر في مواجهة اضطرابي وغضبي، وقد أصابته الدهشة من اتهامي لنفسي وإحساسي بالذنب الذي يعلم الله أنه ليس ذنبي.

فكَّر جراهام في بوبو الذي يشير إليه دائمًا بالولد، وقال: ماذا عن الولد؟

لا يجب أن يفاجأ بالحادثة في صحف هذا المساء فهل أذهب إليه في المدرسة وأخبره بكل شيء؟

قلت: لا ... سأذهب بنفسي، فهو ابني قبل كل شيء.

حاول جراهام بعقلية المحامي أن يذهب للولد بنفسه للتخفيف عنه؛ نحو مزيد لتأكيد علاقته بي، لكن ذلك ليس في صالح بوبو الذي قد ينظر إليه أو إلى أي صديق لي كأب، خاصة إذا انتهت هذه الصداقة.

ناولني كوبًا آخر من القهوة ثم أشار إلى مقعدي وقال: مزيد من القهوة قد يفيد.

تناولت قهوتي دون أن أجلس واجتاحتني رغبة قوية في سماع أي شيء صحيح من أي شخص، فبدوت وكأنني في حالة صراع غريب، ثم تساءلت: صراع مع من؟ ... لا بد أن أذهب للولد هذا الصباح، ويجب أيضا أن أزور جدتي بعد ظهر اليوم.

قال جراهام الذي يعرف أنني لا أقوم بزيارة السيدة العجوز بانتظام: فلتفعلي ذلك غدًا.

أجبت: لا ... فاليوم عيد ميلادها ولا أستطيع تأجيل الزيارة.

ابتسم وقال: كم عمرها الآن؟

قلت: في الثمانين تقريبًا.

عرفت معنى البرقية من طريقة صياغتها لكنني عاودت قراءتها مرة أخرى قبل الإلقاء بها في صينية الإفطار، ثم توجهت للحمَّام وتركت الماء يتدفق فوق رأسي وجسدي، وعندما خرجت لارتداء ملابسي كان جراهام يتصفح الجريدة باهتمام بالغ وهو جالس في الشمس أمام باب شرفتي المفتوح، وأثناء تجوالي في الشقة سمعته يتنهد ... كان يرتدي سترة من الصوف الخشن يطيب له دائمًا أن يقضي بها عطلة نهاية الأسبوع، وقميصًا من الحرير الناعم، وكان له فك شاحب متجعد وعينان عميقتان تختفيان خلف نظارة سميكة وتوحيان بأن صاحبهما يعمل حتى وقت متأخر من الليل ... كان فم جراهام كبيرًا وشفتاه ممتدتين يميل لونهما إلى الأزرق، وعندما كان يقف تحت ضوء الفناء مرتديًا زي المحامي كانت تغطي وجهه تلك النظارة السميكة وذلك الفم الكبير.

انتهيت من ارتداء ملابسي وأصبحت مستعدة للرحيل، فنهض جراهام للانصراف وقال: هل ستذهبين إلى عائلة شرويدرز في موعد الشراب بعد عودتك من عند الجدة ... إنهم سيرحلون غدًا إلى أوروبا.

– لا أعتقد ذلك.

– ماذا ستفعلين إذن؟ هل ترغبين في تناول العشاء بمكان ما؟

– لا ... لا أستطيع.

إن جراهام ليس شابًّا مراهقًا، وإنما هو في السادسة والأربعين من عمره، فلم تظهر عليه أي من علامات الضيق أو الاستياء، فتناول سجائره ومفاتيح سيارته وقبل أن يهم بالمغادرة قلت: هل بمقدورك أن تفعل شيئًا من أجلي؟ هل تستطيع الذهاب إلى بائع الزهور نيابة عني وتطلب منه إرسال بعض الزهور إلى السيدة العجوز؛ لأن المحلات ستكون مغلقة بعد عودتي من المدرسة؟

أشار برأسه موافقًا دون أن يبتسم ثم تناول قلمًا وكتب العنوان بخطه الجميل.

الطريق إلى المدرسة يؤدي إلى أخدود جوهانسبرج ذي التلال الكثيرة ويفضي إلى حقول الذرة والأرض المنبسطة المغطاة بمروج الأشجار ... إنها بداية الشتاء ورياح صباحية تمتزج بضوء الشمس وتصطدم بالأشجار القليلة، فيستحيل لونها إلى سواد في مواجهة الأعشاب الشاحبة، وكان من اليسير أن يتنسم المرء رائحة عذبة خلفتها برودة الليلة الماضية ... كانت شجرات الفلفل القديمة المتناثرة هنا وهناك تجعل المرء يشعر وكأنه في بيت داخل مزرعة، وكانت شجرة الأوكاليبتوس[1] بتموجاتها القديمة وكذا أشجار السنط بأغصانها الكثيفة، ثم تلك الأكواخ الطينية المهجورة والدكان الهندي وشجرة الصفصاف المنتصبة بلونها الباهت إلى جوار شق في الأرض.

كل شيء كما هو وكل شيء كما كان منذ طفولة ماكس ... نفس الطريق الذي عرفته في طفولتي ومشيت فيه مرارًا، ونفس الصباح الذي استيقظت فيه كثيرًا.

تسللت الشمس داخل سيارتي حتى اخترقت جفوني وكانت هي الأشياء ذاتها، الشمس، الأعشاب الشاحبة، الهواء النقي، والإحساس بماكس وبما حدث لنا معًا ... أوه، كيف لهذا الصباح أن يظل كما هو؟! ... إننا نعرف أن الوقت يمضي كلما تغيَّرت الأشياء، لكن الفضاء هنا متسع دائمًا، والشمس لا تتوقف عن الدوران، ولو أنني عشت في مكان

[1] الأوكاليبتوس eucalyptus: أشجار تستخدم أوراقها طبيًّا. (المترجم)

آخر من العالم لما عرفت أن هذا الصباح الخاص إنما هو ظاهرة جغرافية طبيعية مثل سقوط الأمطار السنوي وضغط الجو المستمر.

نشأ ماكس وسط مزرعة أبيه الخاصة. وكان يخشى المروج حيث يقيمون الحفلات ويهتمون بتربية البط كأحد مظاهر التباهي، ولقد أخبرني ذات مرة أنه كان يسمع أصوات البط بين الأشجار أثناء عودته من الغابة دون أن يفهم ما يقوله البط.

كان أبوه عضوا في البرلمان، فرُحت أفكر في موته وفي الطريقة التي مات بها، ووجدت نفسي أردد بهدوء: طبعًا، لقد غرق بالسيارة في البحر كما أحرق ذات مرة ملابس والديه، ومثلما حاول منذ ثلاث سنوات أن ينسف مكتب البريد ... لم أكن أتوقف عن اللعب مع ماكس في ذلك الوقت، لكنني لم أكن أيضًا أعرف، وهكذا انتابني هدوء ممتزج بالغضب عندما تلقيت البرقية وهمست لنفسي: آه لو كنت أعرف!

عرفت بعد قراءة البرقية أنني السبب، فكل شيء بيننا كان قد انتهى وتحطم، وكان الفشل يلاحق حياتنا معًا، ورغم محاولاتنا الجادة في الحفاظ على ما بيننا إلا أن الرياح اجتاحت كل شيء، وتفرَّقنا إلى ذرات بلورية.

انحرفت فجأة لأتجنب تصادمًا في الطريق، ثم عدت لهدوئي وبدوت كما لو أنني أعبر نقطة قريبة من شيء معين في نفسي ... إنها الذاكرة التي تعود بنا إلى الطفولة وحرية الانطلاق، لكنني قلت: لقد مات ماكس.

كنت دائمًا أفعل ما أحب في صباحات أيام السبت، لكنني منذ أسابيع لم أفعل شيئًا سوى دعوة جراهام على الإفطار والعناية بشعري والذهاب أحيانًا لمحلات ضواحي المدينة دون ضرورة ما، وغالبًا ما كنا نلتزم بالبقاء في المنزل. ولا نخرج إلا قليلًا دون أن ننام معًا، ومع مرور الوقت أصبحت زيارات جراهام تقليدًا وصارت أمسياتي في الحانات والنوادي مع قوم لا أعرفهم جزءًا من العادة.

كانت أيام السبت أيضًا هي فرصتي النادرة لمشاهدة الذي لا يسمحون له بالخروج سوى مرتين في الشهر من أيام الأحد، ولم تكن المدرسة تشجع زيارة الوالدين بين هاتين المرتين، لكنني الآن أقود السيارة في طريقي للمدرسة، وقد أدركت أنني لم أشترِ شيئًا من أجل بوبو ... أوه، ربما أستطيع اصطحابه إلى الخارج وعندئذٍ يمكنني أن أشتري له الشاي وبعض الكعك بالكريم من فندق المدينة القريب من المدرسة ... إن تقديم الهدايا إلى بوبو — كما أرى — شيء هام وضروري، كنت أعرف أهميته في ملامح وجهه عندما أفتح سلة التفاح وعلبة الحلوى، وهكذا كانت طريقتي في محاولة سد النقص.

يجب ألَّا أبوح بأسبابي، وعله وحده أن يفهم ... ليتني أستطيع أن أحفظه كما تحفظ إناث القردة صغارهن تحت أجسادهن، لكنني لا أستطيع أن أقدم له ضروريات الحياة ليحيا في ظل أب وأم وعائلة كما عشت أنا وماكس ... أوه، من اليسير أن نوجِّه اللوم لآبائنا حين يصيبنا التعب، فنحن ننتمي إلى الجيل الذي يلقي بأعبائه على فرويد كما كان الجيل السابق يلقي بأعبائه على المسيح، ولكن ماذا عن كل أولئك السود الذين يتلقون الحسنات والعطايا وليس لهم قانون يقوم على حمايتهم ... والذين لا يشعرون بأنفسهم ويجهلون أنهم ليسوا سوى خدم عندنا ... ولا يملكون شيئًا يقدمون من أجله الشكر ... أولئك المخدوعون بالحسنات الذين يتملكهم الجوع والأذى.

عندما يكبر بوبو سوف يواجهني بأسئلة صعبة لا أعرف نوعها، ولست على يقين من الطريقة التي سأخبره بها عن كل شيء، والتي قد تجعله بائسًا إلى الأبد، لكنني أرى أنه سيبحث عن سلامه في مكان آخر، بعيدًا عن ضواحي البيض الذين يحافظون على سلالتهم ... أحمد الله أنه لم يولد في تلك الضواحي، فقد كان أحد الملايين من الأطفال الذين يتخلقون في السيارات والمزارع والحدائق والأزقة في كل أنحاء العالم، حيث إن حجرات المعيشة ذات الزهور والدوارق لا تعرف ممارسة الحب ... إن حجرات النوم في ضواحي البيض لا تعرف سوى التأمل تمامًا كالشرفات.

كنا شركاء في الخطأ وقلت لماكس: أنت تنسى.

هز كتفَيه بضجر ثم غيَّر الموضوع كما يفعل دائمًا وقال: أتمنى أن يكون لي طفل يخلفني، فالطفولة عالم جميل وغير ملوث، والطفل يصيح كل الوقت وعندئذٍ ترين أشياء حقيقية كألوان الأحجار وقطع الأخشاب.

ها قد مضى أكثر من عام منذ شاهد بوبو للمرة الأخيرة حين أظهر حبًّا كبيرًا للولد وراح يلعب ويمزح معه مما أثار سعادتي، خاصة وأنه كان في المرات السابقة يصرخ فيه، فأجد نفسي مضطرة لحمله والمضي به في الشوارع.

قبل وصولي المدرسة بقليل كانت إحدى عربات الفاكهة عند جانب الطريق وبجوارها رجل أسود يقفز فوق النار وهو ممسك بعصا تلتصق في طرفها العلوي برتقالة ... توقفت واشتريت بعض الفاكهة لبوبو.

أرض المدرسة فسيحة وتحيطها الأشجار من كل اتجاه، وهذا ما جعلني أختار هذه المدرسة لكي يجد بوبو فرصة للعب بعيدًا عن الحقول والممرات ... كان ضروريًّا أن يلتحق بهذه المدرسة ذات البوابة الحديدية والاسم المكتوب بحروف تنتسب إلى مجموعة من اللغات

الهندية الأوروبية ... هذه المدرسة ذات قوالب الطوب المتراصة على هيئة صلبان مرتفعة في كل مكان.

إن المنظر العام للمدرسة يشعرني بالقمع ويصيبني بالخوف ... دخلت من البوابة بحذر حيث يقف بعض الرجال السود بملابس نظيفة، والبعض الآخر مشغول بنظافة السور وزهور الحديقة الرئيسية أو تقليم الشجيرات وإزاحة أوراق الشجر، وأبصرت لافتة من القصدير على شكل يد تشير بالسبابة إلى مكان انتظار الزائرين ... توقفت بالسيارة في المكان المحدد، وكانت الساعة تقترب من الحادية عشرة، فاجتاحني القلق من ذلك المكان الذي أراه دائمًا كالسجن ... كانت صيحات الأولاد تتقافز عبر الملاعب والأركان الخلفية للمباني، وظلت هذه الصيحات الفرحة بالحياة تتصاعد خلف قوالب الطوب النظيفة وتتخلل الفراغ الغارق في الشمس.

صعدت السلالم البراقة وطرقت فوق الباب المطلي بالزيت طرقات قوية ... فتح الباب شاب جديد ذو فك كبير وحضور جذاب، ثم صافحني برقة وقلة دراية بالنساء، وكان يرتدي بنطالًا قذرًا وضيقًا ويحكم ربطة العنق، ولم يكن من العسير معرفة أنه أحد خريجي إكسفورد أو كامبريدج الذين يعملون في أفريقيا ويضيفون إلى المناهج طابع العصر مثل ذلك الذي أخبرني عنه قائلًا: إنه يعزف على الجيتار ويعلم الأولاد وجهة النظر الأمريكية ضد القنابل وضد سياسة التمييز العنصري والأغاني الفلكلورية.

اصطحبني السيد الشاب إلى مكتب الناظر وطلب مني الجلوس حتى يذهب لاستدعائه من حجرة الأساتذة حيث يتناولون الشاي، فكان المكتب كما رأيته بضع مرات من قبل نظيفًا بطريقة تبعث على الاستفزاز، وتزينه مجموعة من صور أذرع وعضلات رياضية قوية، وله أرضية لامعة تغطيها سجادة ذات لون بني، أما صورة الناظر المقطوعة من مجلة المدرسة فلها إطار من الورق المقوَّى ... إنه رجل لبق وإنسان كما يقول عنه الجميع.

رحب بي وأعرب عن سعادته لرؤيتي، فأزاح عن كاهلي القلق الناتج عن زيارتي في غير الأيام الرسمية ... لا بد أنه أدرك أن ثمة شيئًا هامًّا جئت لأجله، لكنه لم يكن متعجلًا ولم يتوقف عن ابتهاجه وترحيبه، مما ساعدني في الاستعداد لبدء سرد قصتي، فأخبرته بوفاة والد بوبو وحدثته عن الطريقة التي مات بها ... بدا الرجل مسيحيًّا طيبًا ومتفهمًا كما يحدث غالبًا في مثل هذه الظروف، رغم تظاهره بالانتباه الناتج عن عدم معرفته بأمثالنا من الناس، ثم حكيت له عن ظروف بوبو وعن الطلاق والاعتقال السياسي وموت ماكس الأخير، فعرف كل شيء، خاصة وأنه يتابع في الصحف أبحاث الكنيسة عن اللواطة

والإجهاض، كما أنه متزوج من السيدة جيلنجر التي تدرس الفن بنفس المدرسة منذ ما يربو على خمسة وعشرين عامًا، ولقد عرفت أن ابنتهما تزوجت في العام الماضي بأحد طلبة المدرسة المتفوقين.

نهض من مكانه وسارع بفتح الباب ثم نادى على أحد الأولاد في الممر قائلًا: بريثويت، اذهب لإرسال بروس فان دن ساندت ... هل تعرفه؟ ... إنه في الصف الرابع.

– نعم سيدي ... إنني أعرفه وأعتقد أنه في المكتبة.

سارع الولد لإحضار بوبو بطريقة تركت أثرها بين حواجب الناظر.

بروس فان دن ساندت ... أوه ... إنها إحدى المرات القليلة جدًّا التي أسمع فيها هذا الاسم والذي يسرني سماعه ... إنه بوبو ابن ماكس الميت لكن اسمه يتردد بصوت عالٍ في أروقة المدرسة.

قال الناظر: ادخل.

ثم قال لي وهو يفتح باب حجرة الزائرين: من الأفضل أن تتحدثي إليه بمفردك. كنت راغبة في اصطحابه للخارج وتبادل الحديث معه ونحن نتجول بالسيارة، لكنني لم أستطع البوح برغبتي للناظر، فتساءلت بيني وبين نفسي: لماذا أخجل ببلاهة أمام أولئك الناس رغم كراهيتي لقيودهم وطريقة حياتهم؟

انتظرت قليلًا بقاعة الاستقبال حتى فتح بوبو الباب فملأ المدخل بحضوره، وكانت أذناه متوهجتين وفتحتا أنفه واسعتين وكأنه قد فرغ لتوه من الجري واللعب ... حرك يديه وابتسم ابتسامة ميتة وقال: ماما؟ ... لم يخبرني أحد بقدومك!

ثم عانقني وضحكنا كما يحدث دائمًا حين نلتقي ونسعد بوجودنا معًا بعيدًا عن المدرسة وعن أي شيء آخر.

سألني: كيف سمحوا لك بالدخول؟

لم أكن قد فكرت فيما سأقول، ولم يعد ثمة وقت للتفكير، فأمسكت بيده وأشرت بها ناحيتي بصعوبة، ثم قلت: جئت لأتحدث معك يا بوبو بشأن والدك ماكس.

كان بوبو صغيرًا أثناء محاكمة ماكس ودخوله السجن وعندما كبر قليلًا حكيت له عن كل شيء، فأبدى تفهمًا واضحًا، وصار من يومها متوقعًا للمتاعب في أي وقت. جلسنا سويًّا فوق مقعد صغير قديم كما يجلس العشاق في مواجهة بعضهما البعض فقال جيلي: شد جوربك إلى أعلى فأنت تجلس مع أمك.

شد بوبو جوربه المتهالك ثم قلت: لقد مات يا بوبو، وصلتني برقية هذا الصباح وسوف ينشرون الخبر في الصحف، فرأيت أن أخبرك بنفسي ... لقد قتل نفسه.

أصابت بوبو الدهشة وتلاشت نضارة وجهه وقال: هل تعنين أنه انتحر؟

قلت: نعم ... لقد قرر الانتهاء من كل شيء مرة واحدة وإلى الأبد، فاستقل سيارته في اتجاه البحر، وكما تعلم يا بوبو أنه لم يكن يخاف البحر وإنما كان يعشقه ويشعر وسط مياهه كأنه في بيته.

هز رأسه وظل ينظر نحوي بعينين جاحظتين، ولست أدري فيما كان يفكر غير أننا لم نتظاهر بالحزن على ماكس.

قال بوبو الذي لا يعرف ماكس جيدًا: لا أستطيع أن أتذكر ملامحه.

– لكنك رأيته منذ فترة لا تتعدى ثمانية عشر شهرًا.

– نعم ... ويومها تعرفت عليه بصعوبة وكنت طوال الوقت أنظر إليه وأراه كما ترين شخصًا لأول مرة ثم لا تستطيعين تذكر ملامحه.

– لديك صورة له معنا تستطيع أن تجدها في خزانته داخل حقيبة الأوراق الجلدية ... إنك تجلس بيننا في هذه الصورة مثل بقية الأولاد.

– أوه ... نعم.

سادت فترة من الصمت ولم يعد ثمة ما يقال، ربما لأنه من غير الممكن قول كل شيء في وقت واحد وبخاصة في هذه الحجرة.

اشتريت لك بعض الفاكهة من الطريق ونسيت أن أحضر لك أي شيء من المدينة.

قال بذهول: شكرًا مام، ولكن اتركيها الآن فسوف أضعها في مكتبي بعد أن تنصرفي حتى لا يراها أحد.

ثم أضاف: فلنخرج قليلًا.

– هل مسموح لنا بالخروج؟

– أوه ... الانضباط ... من الصعب تخيل مثل هذا المكان، ولكنني على أية حال سأسأل مستر جيلنج.

أغلقنا باب حجرة الزائرين خلفنا وأنا أبتسم بقلق، وتوجهنا نحو حديقة المدرسة الخالية من الأولاد، ثم سرنا إلى الأمام والخلف ونحن نتبادل الحديث في أشياء تافهة كما يفعل الناس عند زيارة مريض بأحد المستشفيات.

حدثني بو عن رسالته التي طلب فيها حذاءً لكرة القدم وعن إمكانية إحضار لوبرت معه الأحد القادم، لكن الرسالة التي وصلتني من المدرسة كانت عن دروس الملاكمة، فأردت أن أعرف رأيه في ذلك.

دلفنا إلى داخل السيارة فقال بوبو بضيق: لماذا لا تتركين السيارة في المدينة يا ماما وتسيرين على الأقدام؟

ثم جلس إلى جواري وراح يتحسس مقبض الباب المفكوك وهو يفكر في كيفية تثبيته ... كان بوبو يشعر داخل السيارة كأنه في بيته، فيسارع بالتقاط الصحف القديمة من فوق تابلوه السيارة ويقوم بالاطلاع عليها، كما لا يتوقف عن التفتيش في صندوق القفازات عن النعناع وهو يقلب تصاريح المرور.

قال: لا أعتقد أن ذلك كان مؤلمًا.

قلت: أوه ... لا تقلق نفسك بذلك فقد كان طوال حياته مؤمنًا بما يفعل. أطرق رأسه وظل ينظر حواليه ثم اتجه ببصره نحوي دون أن يرفع رأسه وقال بدون تفكير: أشعر بالأسف لأنني لم أحبه.

حدقت فيه وقلت دون رغبة في خداعه: قد تسمع كلامًا بين الأولاد لكنه مات وهو على صواب حتى لو كانت طريقته خطأً ... لقد حاول كثيرًا لكن شيئًا من محاولاته لم يتحقق ويكفي أنه لم يعش لينام فقط ويأكل ... إنه لم يكن سعيدًا بتمرده على أهله وبني جنسه، وعلى أية حال فإن الفشل أفضل كثيرًا من عدم المحاولة، فهناك بعض الرجال الذين يعيشون بنجاح في هذا العالم لكنهم لا يملكون شجاعة المحاولة خوفًا من الفشل.

رفع بوبو الصغير بصره وقد شعر بالرضا ثم قال وهو يتنهد بقوة: كنا نعاني دائمًا من المتاعب بسبب السياسة ... أليس كذلك؟

قلت: ليس صحيحًا أن كل شيء كان بسبب السياسة، فلقد تسببت وجهات نظر ماكس السياسية في كثير من المتاعب، لكن إقدامه على الموت لم يكن نتيجة مباشرة لأي شيء متعلق بالسياسة؛ لأنني أعرف أنه كان يعاني ورطة شديدة لم يستطع التعايش معها ... إنه لم يقدر على الوفاء بالمتطلبات التي أخذها على عاتقه.

ثم أضفت بفتور، كما فعلت أنت حين عزمت على اللعب في الفريق الأول بينما لم تكن تليق إلا باللعب في الفريق الثالث.

هز رأسه ببطء وهو يتابع حديثي مثلما يفعل النبات عندما يتنفس، وأخيرًا كان عليه أن يقبل ما سمعه مني ولم يخبرني هذه المرة عما يقوله له الآخرون كما كان يفعل بغضب في المرات السابقة ... إنهم يشوهون سمعتي لكنني أرغب دائمًا في سماع ما يقولون لأنني جديرة بالدفاع عن نفسي، أما بوبو فهو من جيل لا يعرف أسلحة الجيل الآخر.

أمسك بيدي وراح يقبلها برقة كما تعود أن يفعل وهو صغير، ولست أعرف لماذا كان يقبل ظهر يدي هذه المرة وخاصة الإبهام ... كان بوبو قد توقف عن تقبيل يدي منذ خمس سنوات، فهل هو نوع من الارتباك أم أنه فقد حاجته لذلك؟!

سألني: ماذا ستفعلين اليوم؟ هل سيأتي جراهام؟

أجبت: لا أعتقد فلقد جاء هذا الصباح وتناول الإفطار معي.

– أعتقد أن جيلنج سيصلي على ماكس الليلة لأنه دائمًا يصلي على الموتى.

– الصلاة على روح ماكس ستقام في كنيسة المدرسة الصغيرة، ولن تكون هناك أية طقوس أخرى، وأتمنى ألا يصلي عليه أولئك الذين كان يعمل معهم، أو الذين قام بخيانتهم لأنه لم يكن بطلًا ولكن من يدري؟! ... ربما صنع قنبلته الصغيرة من أجل حرية السود ... إن الرجال البيض تناولوا الموضوع باستخفاف عندما لجأ إلى أحد الشهود الرسميين ... ربما كان ماكس نوعًا من الأبطال يجب أن نتوقعه.

شعر بوبو بالضيق والقلق عندما أوشكت على الانصراف فقال: هل أدير لك السيارة؟

نسيت ما قد يثيره من متاعب إذا شاهده أحد فتحركت طواعية إلى المقعد الآخر بينما نزل بوبو من السيارة ودخل من الباب المجاور لعجلة القيادة ثم بدأ يقود السيارة في مكان انتظار السيارات.

قلت: كفى ... قف.

ضحك ثم توقف، فأضفت: إلى اللقاء يوم الأحد وسوف تحضر معك ... ما اسمه؟

– لوبرت.

– أعتقد أنني لم أقابله من قبل ... وماذا عن ويلدون؟ ألا يريد أن يأتي أيضًا؟ إنه أحد الأولاد الذين يعيشون بعيدًا ويصعب عليه الذهاب إلى بلده في فسحات أيام الآحاد ... هل تشاجرتما أو حدث شيء بينكما؟

– لا ... لم يحدث شيء، لكنه بعد مباراة كرة القدم وبعد أن يصيبنا العرق يقول بأن رائحتنا مثل رائحة الـ Kaffirs:[٢]

ما زلت حتى الآن لا أعرف السبب وراء تسميتهم بهذا الاسم. إنه يتحدث عليهم وكأن تلك الرائحة لا تفارقهم أبدًا ثم ضحك وأحيانًا يشاركه كثير من الأولاد في رأيه وضحكاته.

[٢] Kaffirs: تعني الناطقين بلغة البانتو في جنوب أفريقيا. (المترجم)

ظل بوبو ينظر نحوي بوجه متجهم يوحي بالفزع والبحث عن إجابة غير ممكنة ثم قال: أحيانًا كثيرة أتمنى لو أن الله خلقنا مثل بقية الناس.

قلت: أي نوع من الناس؟

أجاب: أولئك الذين لا يبالون بأي شيء.

تجولت بنظراتي حول مباني المدرسة الشاحبة ثم تبادلنا القبلات.

وقلت: إلى الأحد القادم.

قال بهدوء: لا تتأخري.

ألقى بعلبة الورق من نافذة السيارة وانطلق مسرعًا فأبصرت شعره الكثيف وشعرت بثقة كبيرة في بوبو، ثم همست نفسي: إنه على ما يرام ... سوف يكون على ما يرام رغم كل شيء!

الفصل الثاني

وجدت نفسي — دون أن أدري — أعود من طريق آخر طويل وبعيد عن المدينة، وشعرت بصوت حيوان ضخم يدوي في أذني.

مضيت في طريقي عبر المناطق الصناعية التي تغذِّي البلاد بالثورة، وأبصرت بعض جرارات متجاورة كالتماثيل داخل فناء أحد المصانع، ثم ظللت أسير خلف شاحنة فحم ضخمة مسافة كبيرة وأنا أتأمل العمال السود فوقها، فبدَوا لي أكثر سوادًا من الفحم ذاته ... كانوا مربوطين حول الكانون المشتعل خشية السقوط من فوق الشاحنة المسرعة، وعند اقترابي من ضواحي المدينة وجدتني أسير خلف شاحنة أخرى محملة بالأثاث ... كان الرجال السود متعلقين بالأثاث بطريقة مستهترة وكأنهم لا يهتمون بالسقوط أو الموت، وكان أحدهم يشد بإحدى يديه قبعة لاعب الجولف فوق عينيه ويستخدم اليد الأخرى في معاكسة البنات السود اللاتي كن يضحكن لذلك أو يبدين التجاهل دون أن يبدو على أي منهن أي شعور بالمهانة أو الانتهاك، وعندما أبصر الشاب الأسود ذو القبعة ابتسامتي لم يعرني أي اهتمام.

توقفت عند مراكز البيع لشراء بعض الطعام المعلب والسجائر، ثم جلست إلى طاولة فوق رصيف أحد المقاهي وتناولت فنجانًا من القهوة.

كان المكان مزدحمًا بالنساء الصغيرات اللاتي يرتدين البنطلونات والأحذية الغالية، وكان الرجال يرتدون ملابس نهاية الأسبوع ويطلبون الآيس كريم للأطفال، وكانت تشاركني الطاولة سيدة كبيرة بملابس أنيقة وفراء.

قالت السيدة الكبيرة الأنيقة: لقد طلبت بعض الأشياء وعلبة سجائر فضية فإنه يحتاج إليها عندما يذهب للحفلات.

تساءلت بيني وبين نفسي: وهل يحتاج لعلبة سجائر فضية عندما يذهب لقاع البحر؟

كانت تشبه أم ماكس تمامًا في أناقتها ولون بشرتها الأبيض ورشاقتها، ولا بد أنها تستخدم بعض المراهم والدهانات في تحسين وجهها وشعرها، وتلك الخطوط الجميلة فوق عينيها الزرقاوين المتجعدتين ... كانت تحرك أظافر أصابعها الوردية بثقة ويبدو رأسها أيضًا كرأس السيدة فان دن ساندت الأرملة التي تستخدم القلم الملون المعلق فوق موقد النار بحجرة الجلوس.

كيف تركت أم ماكس كل ذلك الأثر بداخلي عندما كنت في السابعة عشرة من عمري في المرة الأولى التي ذهبت فيها إلى المزرعة مع ماكس؟! ... كانت السيدة فان دن ساندت امرأة جذابة إلى حد بعيد، وأذكر أنني في ذلك الحين لم أكن أعرف أنه من الممكن أن تكون الحياة جميلة وسارة، فالبوفيه تفوح منه رائحة عطر فوَّاح والحمامات تحوي بداخلها سجاجيد رقيقة وأباريق زيت وزجاجات كولونيا كبيرة يمكن لأي شخص أن يستخدمها.

قال ماكس يومئذٍ: نعم ... إن أمي تضع غطاءً مزركشًا فوق كل شيء حتى فوق مقعد دورة المياه وأيضًا فوق عقلها.

عرفت أيضًا أنه بمقدورك الحصول على ملابسك نظيفة وجافة دون بذل أي مجهود، وأنك تستطيع أن تطلب كوبًا من عصير البرتقال الطازج أو الشاي أو القهوة في أي وقت تشاء، وكان الخدم من الرجال ذوي الأحزمة الحمراء يتحدثون مع السيدة فان دن ساندت بلغة الهوسا، وكانت تتحدث مع الطاهي ذي القبعة الملونة بالأفريكانية[1] واللهجات العامية المحلية، وكانت تقول: إنني أعرف أولئك الناس كما لو أنني منهم.

كان الضيوف يغارون منها بسبب أولئك الخدم المهرة الذين يعملون عندها، وعند سماعي لعبارة الغيرة والحسد كنت أتذكر أبناء البلد الذين اعتادوا على الحضور من أماكن بعيدة لزيارة أمي والقيام على خدمتها، وخاصة ذلك العجوز الذي كان يحضر مرة في الشهر بانتظام، وكانت أمي تقدم له بيديها فنجانًا من القهوة وهو جالس تحت الشجرة ... نعم، إنني أرى ذلك الآن بوضوح.

تزوجت أم ماكس سليلة إحدى العائلات الهولندية برجل يتحدث الإنجليزية دون أن يعلنا زواجهما، وعملت بمختلف سفارات جنوب أفريقيا في أوروبا، ورغم أنها كانت دائمًا تبدأ حديثها الخفيف السريع بكلمة «عزيزي» مثل طراز النساء الإنجليزيات من جيلها،

[1] Afrikaners: الأوروبيون البيض الذين يعيشون في جنوب أفريقيا.
Afrikaans: اللغة التي يتحدث بها الأوروبيون البيض في جنوب أفريقيا. (المترجم)

إلا أنها ظلت تتحدث بالأفريكانية، أما والد ماكس ورغم اسمه الفلمنكي، إلا أنه من أسرة إنجليزية هاجرت إلى جنوب أفريقيا مع بداية العمل في مناجم الذهب، وقد كان رجلًا نحيفًا ذا وجه أحمر كبير ومتألق وله شعر خشن ممشط للخلف وذقن مشقوق، وقد كان بطريقة ما يتعامل مع بعض الناس الذين يكرههم أو يخافهم ولا يتورَّع عن الضحك مع أحد منافسيه السياسيين.

ومنذ اليوم الأول الذي ذهبت فيه إلى ذلك البيت كان الناس دائمًا موجودين حيث الحفلات ولعب البريدج في المساء، بالإضافة إلى الأصدقاء واجتماعاتهم التي تنتهي بالشراب وتناول وجبات خفيفة من الطعام، وكان جوناس وألفريد بوشاحهما الأحمر يدخنان السيجار.

بعد أن أصبحت زائرة منتظمة كانت السيدة فان دن ساندت تتجول بيننا ونحن نشرب أو نتبادل الحديث وتقول: أيها الأولاد ... تعالوا وتناولوا بعض الطعام.

كنا نسمع كلامها ونمضي وسط الخدم بملابسهم السوداء ذات الأشرطة والدبابيس فوق البطون، فتستطرد السيدة فان دن ساندت قائلة لبعض الضيوف: بالطبع تعرفون ماكس، إنه ابني وهذه إليزابيث الصغيرة. ثم تقول لماكس: فلتأكل شيئًا يا حبيبي ولا بد أن تعتني بهذه الفتاة ... إنها لا تبدو سعيدة.

كبر ماكس وسط ذلك الجو لكنه كان يشاركني عدم الاهتمام بحديثهم عن الأسهم المالية والسوق والكمبيالات التي يعتمدون فيها على العامل الرخيص، وكنا نشعر بالغثيان حين يتحدثون عن البنوك والاستثمارات وتقسيم الأراضي وكيفية الاحتفاظ بأفضلها لهم.

كنت ما أزال جالسة إلى الطاولة فوق رصيف المقهى، وحين رفعت فنجان القهوة إلى فمي أبصرت الحقيبة المفتوحة للسيدة الجالسة إلى جواري والتي ذكرتني بالسيدة فان دن ساندت وعائلتها، ثم تذكرت حقيبتها المليئة بألعاب الصبية والتمائم والقلم الرصاص المطلي بماء الذهب وعلبة الدواء المرصعة بالجواهر ... كان ماكس ميتًا بالنسبة لعائلته منذ أن قبضوا عليه بتهمة التخريب مع بعض رفاقه من البيض، حتى إن والده استقال من البرلمان، وتوقفت أمه عن الحضور إلى المحكمة رغم رصدها لمبلغ كبير دفاعًا عنه ... كانت تأتي إلى المحكمة في البداية وتجلس في القاعة العامة بجوار بني جنسها من ذوي اللون الأبيض بشرط أن تكون بعيدة عني، وذات يوم دخلت المحكمة بعباءة قصيرة ورقيقة من الدانتيلا، وكان شعرها مصففًا بطريقة حديثة وترتدي حذاءً وقفازًا متناسقين تمامًا، فعرفت مدى اهتمامها بأناقتها، وتذكرت قول ماكس: إن أمي تضع غطاءً مزركشًا فوق كل شيء حتى فوق مقعد دورة المياه وأيضًا فوق عقلها.

جلست بثبات فوق المقعد الصلد وكانت أهداب جفونها المصبوغة تميل في اتجاه وجنتيها، ولم يحدث أن تطلعت حواليها خشية أن تصطدم نظراتها بنظرات زوجات وأمهات وأصدقاء بقية المتهمين البيض، كما لم تنظر إلى يسارها عبر الحاجز حيث الرجال السود الكبار بمعاطفهم الممزقة والنساء ذوات الأربطة اللاتي كن يجلسن بقلق ونفاد صبر كالزنبرك.

رحنا جميعًا نتحدث في فترة الراحة، وكانت المجموعات الواقفة من ممرات المحكمة تعترض بعضها البعض، فإذا بي فجأة أشم رائحتها وأجد نفسي في مواجهتها تمامًا فاضطرت أن تفتح فمها بعد سنوات من الصمت بيننا.

قالت: ماذا فعلنا لنستحق كل هذا؟

أبصرت تحت عينيها وفيما بين شفتيها وذقنها صراعًا بين جمالها وعمرها المتقدم ولا أعرف كيف قلت: أنت تتذكرين اليوم الذي حرق فيه ملابس أبيه.

كان وقع الأقدام يحيطنا من كل اتجاه فشعرنا بالأرض تهتز من حولنا حين قالت: لا شيء فيما فعل، فكل الأولاد كذلك.

قلت: لا، إن في ذلك الكثير، فلقد كان يعاني مشكلة في المدرسة حاول كثيرًا أن يتحدث بشأنها مع أبيه، لكن أباه كان دائمًا مشغولًا، وفي كل مرة حاول فيها قول ما يريد كانوا يقولون له: اذهب الآن لأن أباك مشغول.

ضحكت ضحكة مريبة وسألت: عن أي شيء تتحدثين؟

أجبت: ربما لا تتذكرين لكنك بالطبع تتذكرين محاولات زوجك الكثيرة من أجل دخول الوزارة عندما كان عضوًا بارزًا في البرلمان، وتعرفين جيدًا كيف أنه كان مشغولًا إلى حد بعيد.

استدارت كما يفعل المرء عندما لا يجد شيئًا يقوله.

كانت عائلة فان دن ساندت تعاملني كصديقة ليس من أجل شخصي، وإنما لأجل ماكس بعدما رأوا اهتمام كلينا بالآخر، خاصة وأن ابنهم لا يشغل وقته في نادي المدينة، كما أنه ليس عضوًا بحزب الشباب الوحدوي، وكانوا ينادونني بالفتاة الصغيرة ليس لصغر حجمي وإنما دليل على وضعي الاجتماعي، فقد جئت من مدينة صغيرة وكنت ابنة لأحد أصحاب الدكاكين، أما والد ماكس فهو من رجال الصفوة في الحكومة العنصرية، بالإضافة إلى إدارته لشركة تعبئة البلاستيك ومصنع السجائر.

لم يتعاملوا مع ماكس بجدية كافية حين كان طالبًا، وكانوا يسمعون عن أنشطته السياسية من الطلبة كما عرفوا بعضويته في إحدى الخلايا الشيوعية، لكنهم لم يقفوا

كثيرًا أمام ملابسه البوهيمية وعدم ظهوره في حفلات المساء؛ لأنهم كانوا يرون كل ذلك مجرد لعبة لن تطول، غير أنهم لم يسمعوا عن الوقت الذي كان يقضيه مع الطلبة الأفارقة والهنود في بيوتهم بحي الأقليات بالمدينة، والذي لم يسبق أن ذهب إليه ماكس من قبل، حيث قدموه هناك لسائقي الرجال البيض وعمال المصانع والنظافة الذين يستعرضون وجهات نظرهم وأفكارهم الخاصة ورغبتهم في تحقيق مطالبهم التي لا تعرفها أو تشعر بها عائلة فان دن ساندت.

«نحن شعب جنوب إفريقيا» ... هكذا كانت تقول أم ماكس ولم تكن تعني بذلك سوى الأفريكان والبيض الذين يتحدثون الإنجليزية، وعندما طالب والد ماكس بوحدة جنوب أفريقيا من أجل التقدم والرخاء للجميع كان يعني نفس الشيء، مشيرًا إلى رفع أجور البيض ومنحهم السيارات، لكنه وأمثاله لم يذكروا شيئًا في البرلمان عن السكان الأصليين الذين يمثلون حوالي أحد عشر مليونًا والذين يعانون من القلق في حياتهم وعملهم ولم يعرفوا — منذ مجيء الرجل الأبيض — أفضل من الكوخ الطيني بين الأشجار المتناثرة مكانًا لهم.

كانت القلة المتعلمة من السود مثار دهشة السيدة فان دن ساندت التي قالت وهي تفكر بالحشرات الزاحفة من شقوق حجراتهم وسط ضوء الشموع الضعيف: كيف استطاع بعضهم الارتقاء بنفسه؟!

وعندما أصبحت حاملًا في الثامنة عشرة من عمري قالت في محاولة لتهدئة ابنها: انظر إلى بطنها الصغير يا عزيزي، لكن ذلك لا يهم فهو مجرد خطأ وهذا كل ما في الأمر ... أليس كذلك؟

ثم أعلنت أنها ستتهاون فيما حدث، وكانت تشك في علاقتي بماكس ولا تتوقف عن رفع حاجبيها وهي تلومني بسخرية وتبتسم عندما نتناول الغداء معهم في أي يوم.

تغيرت ملامح ماكس وبدا عليه الضيق، فاستدار خارجًا من الحجرة دون أن يقدم لها التحية وعندئذٍ أسرعت خلفه إلى حجرة نومه القديمة وقلت: إن ما قالته لم يضايقني فلماذا أنت كذلك؟

حدث ذلك مع بداية حملات التحدي المناهضة لحكم الأقلية البيضاء عام ١٩٥٢م، وكان ماكس أحد الرجال البيض الذين زحفوا إلى مواقع الأفارقة المحظورة عليهم حيث شارك السودَ والهنودَ الاعتصامَ في ميدان عام احتجاجًا على سياسة التمييز العنصري، وبعد القبض على معظمهم تم الإفراج عن ماكس دون معرفة السبب، لكنه قال: إن أبي بالطبع

وراء قرار الإفراج، وهو لم يفعل ذلك من أجلي أو من أجل الحزب الوحدوي الشهير، وإنما من أجل نفسه؛ إذ ليس مناسبًا لرجل مثله أن يكون ابنه في السجن لأسباب تتعلق بالوقوف ضد قوانين حاجز اللون.

كان القوميون في ذلك الوقت يمثلون قوة فعالة، حتى إن فان دن ساندت لم تستطع الحصول على منصب وزيرة الخزانة، وهكذا فكرت هي وزوجها في ضرورة أن يتصرف ابنهما كرجل أبيض ومن أجل مصلحة البيض، لكن وقتًا لاحقًا قد جاء لم يتردد فيه ماكس في صناعة قنبلة.

كانوا يجتمعون في عطلة نهايات الأسبوع ويستمعون بشمس الشتاء التي تدفئ العظام وتبعث على الاطمئنان، وكانت زجاجات النبيذ والويسكي تعلو المائدة إلى جانب الفطائر وبراغيث البحر وعناقيد الزهور، معبرين بذلك عن المستوى اللائق بالمواطن الأبيض، وكثيرًا ما رأيتهم وهم يقدمون البنسات لأولادهم كي يلقوا بها في صندوق التبرعات وقبعات المتسولين السود، ولم تكن القنابل تهز الأرض تحت أقدامهم كما لم يتأثروا بأحداث الشغب والمظاهرات وإطلاق الرصاص، غير أنهم — بطريقة مهذبة — كانوا يتبادلون عبارات الأسف لذلك العنف غير الإنساني … كنت أبدو وكأنني واحدة منهم وأنا جالسة فوق مقعدي في الشمس متناولة نصيبي من شرائح لحم الخنزير، وبالنظر إليهم رأيت استحالة أن يشارك أحدهم في الأحداث، وتذكرت قولهم عن ماكس بأنه رجل مجنون طيب وعدم معاملته بجدية كافية منذ ذلك الخطاب المروع الذي ألقاه يوم زفاف أخته حين كنا ما نزال معًا ولم يكن عمر بوبو يتعدى شهورًا قليلة.

كنَّا في ذلك الوقت نحتل مكانًا في عائلة فان دن ساندت، وكان زفاف أخت ماكس مناسبة عامة أصرت فيها العائلة أن يقدم النخب إلى أخته كويني وعريسها، فلم يشأ ماكس أن يتمرد على تقاليد العائلة، حتى أصابتني الدهشة لاستسلامه رغم رغبتي في ذهابه من أجل كويني التي يحبها والتي يفوق جمالها كل الفتيات.

كان عليه أن يقول شيئًا في هذه المناسبة، فسألته وأنا أضحك: أي شيء ستقول بالله عليك؟

أجاب: لأجل سعادة العروسين.

لوحت بتمثال زجاجي وقلت: هاي!

قدمت لي السيدة فان دن ساندت نقودًا وقالت: من أجل شراء فستان جديد لك تحضرين به الزفاف، ويجب أن تخبري ثيو عن ثمنه حتى يغتاظ من تبذيري.

لم تستطع أن تقاوم رغبتها في تأكيد قيمة الهدية السخية، لكنني لم أخبرها بسعر الفستان الذي اشتريته بنصف المبلغ الذي قلته لها، ودفعت الباقي للصيدلي وبائع الألبان.

جلست خلف طاولة العروس المزينة بالقرنفل والزهور وتناولت سمك السردين المدخن، ثم شربت الشمبانيا وأنا أخفي رعشة من الخجل خلف ابتسامة رقيقة متبادلة مع العم الجالس إلى جواري، وعندئذٍ نهض ماكس للحديث ورغم نحافته وقصر قامته، إلا أن قبضة يده قوية وله عينان صغيرتان زرقاوان موروثتان عن أهل أمه تشعان بقوة وتوحيان ببعد النظر … كان يرتدي بدلته السوداء وربطة العنق الحريرية التي أهديتها له في يوم ما، وكانت ابتسامته الغريبة الغاضبة تذكرني دائمًا بحركة فم حيوان ماكر … وقف أمام المائدة دون أن ينظر نحوي ودون أن يلتفت إلى أي شخص آخر وراح يتحدث في البداية حديثًا صاخبًا، ثم تمالك نفسه قائلًا: لقد اختارت أختي ألن زوجًا لها من أجل أن يتمتعا معًا بحياة سعيدة، ومن الطبيعي أن نتمنى لهما حياة هانئة، خاصة وأننا لا نملك سوى التمنيات رغم أن كل شيء يتوقف عليهما.

ساد الضحك وراحوا يتبادلون النكات ويشيرون إلى بعضهم البعض، لكن ماكس لم يدرك شيئًا وأضاف قائلًا: أنا لا أعرف ألن على الإطلاق، كما أن معرفتي بأختي ليست كافية فلنترك الأمر لهما، مع تمنياتي بحظ سعيد، فهما على أية حال من الشباب وأختي جميلة.

صارت ضحكاتهم أكثر وضوحًا حتى لم يعد صوت ماكس مسموعًا، لكنني فهمت أنه يتحدث عن جمال أخته ومدى تألقها، ومن خلال قسمات وجهه الخالية من التعبير اعتقد الضيوف أنه لا يهتم بوجودهم، فلم يتوقفوا عن الضحك بين كل وقفة وأخرى، وراح ماكس يواصل حديثه: لكن نوع الحياة والطريقة التي سيعيشان بها بين الناس … آه … إنها أشياء أخرى يختلف المرء بشأنها ويختلف الحديث عنها … أعرف أن الذين يعرفون كويني منذ ولادتها وأولئك الذين يعرفون ألن لم يجيئوا إلى هنا إلا بشعور طيب، ولقد تبادلوا الشراب معًا وهم يرددون: «في صحتك يا كويني وأنت يا ألن …»

لكنني أود أن أقول لهما: لا تجعلا العالم يبدأ وينتهي في مثل هذا الجو وهذا النادي الرياضي وبين أصدقاء والديكما الذين يمثلون رئيس مجلس الإدارة المحلي والوزراء السابقين، «لا أريد التعرض للوزارة» … إنني لا أعرف الأسماء لكنني أعرف الوجوه وأريد أن أسألكم عن الذي شيد هذا النادي والذي جعل هذا البلد كما هو عليه. (تصفيق حاد بقيادة شخص ذي كف كبير) … إن العالم أيضًا لا يتمثل في هذا المكان فقط، وإنما هو خارج هذا المكان (تصفيق مرة أخرى) فلا تبقيا بالداخل حتى لا تتصلب الشرايين الخاصة بكما

كما تصلبت شراييهم ... إنهم مصابون بالجلطة رغم عروقهم المغطاة بالفراء والطعام الفائض عن حاجتهم (تبعثر التصفيق في أرجاء المكان كما يحدث بين الحركات الموسيقية في الكونشرتو) ... يجب أن تحذرا من التصلب الأخلاقي والتزمت وقسوة القلب، وحذارِ من العقل الضيق الذي لا يفكر إلا في زيادة الأرباح ... إنهم يوزعون البطاطين المجانية في الشتاء لسكان المواقع في نفس الوقت الذي يرفضون فيه أن يدفعوا أجورًا للناس تساعدهم على العيش، ونحن الصغار لا نستطيع أن نفعل شيئًا ... إنها طريقتهم الأنيقة في الاعتداد بأنفسهم.

تلاشت ضحكاتهم وسمعت العم الجالس إلى جواري: لقد ورث موهبة الحديث عن أبيه.

كانوا يبتسمون ببلاهة وعدم إدراك وهم يتظاهرون بالاهتمام كما يحدث عادة حين يسمعون حديثًا لا يتناسب مع أهوائهم وميولهم، وعندئذٍ استطرد ماكس: نعم، التصلب الأخلاقي، وما أريد أن أحذركما منه مع ضرورة توفر قليل من الشعور والتفكير، وهذا كل ما أريد قوله.

توقف ماكس فجأة عن الحديث بعد أن تملكه الحذر ممن حواليه ثم جلس وساد الهدوء لحظة قصيرة بدأ بعدها صاحب الكف الغليظ في التصفيق، فصفق وراءه الآخرون، وعندئذٍ قفز شخص ما من مقعده إلى مائدة العروس وأخرج زجاجته ثم قدم نخب العروسين الذي نسي ماكس أن يقدمه وقال: في صحة العروسين.

ردد كل الجالسين في المقاعد المذهبة: في صحة العروسين.

أبصرت وجوهًا تبتسم خلف زجاجات الخمر ربما سخرية من حديث ماكس وربما خوفًا منه، وكانت عبارات التهنئة تملأ المكان ثم بدأت الفرقة الموسيقية في العزف والغناء: «من أجل زوجين سعيدين».

كان حديث ماكس مختلفًا عن كل ما سمعوه من قبل، وبدت السيدة فان دن ساندت وهي تنتقل برشاقة عبر المائدة لاستقبال التهاني والقبلات وكأنها تدفن خجلها تحت جلدها.

ماكس المسكين ... حبه لكلمة تصلب أخلاقي ... من أين جاء بهذه الكلمة وكل الكلمات المتشابهة التي ظل يكررها؟ ... إنها مثل الكلمات التي كنا نسمعها في مدرسة الأحد القديمة حيث كانوا يقولون لنا: إن العالم هو حديقة الرب ونحن جميعًا أزهارها ... إلخ.

لم نستطع أن نغادر حفل الزفاف، فتبادلت الرقص مع ماكس للتغلب على الضيق الذي أصابنا، وتظاهرنا بالألفة والتضامن مع الحاضرين، ثم حاولت أن أقول له شيئًا

عن حديثه الذي ألقاه لكنني لم أستطع، غير أنه شعر بخجل ما جعله عابسًا لبضعة أيام لاحقة.

كان لتأثير البيت والمدرسة دور كبير في عدم فهم كويني لحديث أخيها، فقالت بغضب: يا له من حديث متشدق في يوم زفافنا.

وأضافت: أحسست وأنا أسمعه وكأنني في المدرسة أو الكنيسة.

ثم قالت لأخيها: أتعتقد أنه من حقك أن تنصحني لمجرد أنك تزوجت قبلي؟

كنت ما أزال أقود سيارتي في طريق العودة حين تذكرت كل ذلك وقد أصابني الارتباك من حديث ماكس وعباراته الغريبة، لكن ابتسامة غريبة طافت بشفتي لم أنتبه لها إلا حين استوقفني رجل المرور وهو يرد الابتسامة.

الفصل الثالث

فتحت باب الشقة فسمعت جرس التليفون الذي توقف عن الرنين قبل أن ألتقط السماعة وساورني شعور أكيد أنه جراهام، ثم أبصرت باقة من الزهور مغطاة بورق السوليفان فوق المائدة ... ربما أخبر بائع الزهور بإرسال الزهور إلى هنا بدلًا من إرسالها إلى جدتي، لكنني قرأت اسمي مكتوبًا فوق كارت صغير، فعرفت أن هذه الباقة خاصة بي، وأنه أرسل زهورًا أخرى إلى السيدة العجوز ولا بد أن عامل النظافة سامون كان يعمل في الشقة حين جاء جراهام وهو الذي وضع الزهور بالداخل أمام المرآة.

تناولت الكارت وقرأت: مع حبي ... ج. جراهام.

شعرت بنسمات هواء باردة تنبعث من زهور اللبن الثلجية الشبيهة بالبصل في جذوعها وأوراقها ولونها الأخضر ... إن جراهام يعرف مدى عشقي لهذا النوع من الزهور وحبي للزنابق التي اشترينا مثلها عندما تقابلنا لمدة أسبوع في الغابة السوداء بأوروبا في العام الماضي.

حدثتني نفسي: هل ثمة خطأ فيما كتبه على الكارت؟

لا ... لا خطأ في كلمته البسطة لقد انتهز فرصة وجوده عند بائع الزهور من أجل جدتي، فقام بإرسال بعض الزهور لي، خاصة وأنه لا يفعل ذلك إلا في أعياد الميلاد والمناسبات فقط، ولكن هل هي فرصة وجوده عند بائع الزهور أم أنه فعل ذلك بسبب وفاة ماكس؟ ... أوه. يا إلهي الطيب، لو كان الأمر كذلك لأصبح أمرًا مؤسفًا لأنه ليس مضطرًّا لذلك، فلقد مارسنا الحب ليلة أمس رغم عدم وجود شيء خاص بيننا سوى الاستسلام للعادة ... إن جراهام يفقد السيطرة على عقله حين يذهب للمحكمة في اليوم التالي.

دق جرس التليفون مرة أخرى أثناء انشغالي بوضع الزهور في الماء فرفعت السماعة وقلت: لقد عدت لتوي من الخارج والزهور جميلة وهي المرة الأولى التي أرى فيها زهور اللبن الثلجية هذا العام.

سألني: كيف حال بوبو؟

أجبت: كل شيء على ما يرام، فهو ولد متفهم جدًّا وحساس، وشكرًا للرب. تمنيت لو يخبرني أنه قادم على الغداء، لكنني لم أتفوه بكلمة تؤدي إلى ذلك؛ لأننا متفقان بشأن ألا يعيش أحدنا في جيب الآخر، وإذا كان لا بد أن أطلب ذلك فيجب أن أتوقع منه فعل نفس الشيء في أوقات قد لا تكون مناسبة، ومن المحتمل أنه تناول الغداء في بيت المحامي الشاب الذي يلعب معه الجولف وزوجته المحامية الجميلة اللذين أستمتع بصحبتهما وأستطيع زيارتهما في أي وقت، لكننا أمام الناس من أمثالهما وأمام بقية زملائه لا نحب أن ينظروا إلينا كزوجين.

قال جراهام بعد أن أخبرته عن بوبو: يوجد خبر عن ماكس في الطبعة الأولى من صحيفة المساء، فهل ترغبين في سماعه؟

– لا ... أخبرني فقط بمضمون الخبر.

تنحنح جراهام كما يفعل دائمًا قبل قراءة أي شيء بصوت عالٍ أو مثلما يفعل عند بداية دفاعه في المحكمة وقال بصوته العذب: إنه خبر قصير ولم يذكروا شيئًا عنك وإنما عن والديه فقط ... لقد خرجت القضية إلى النور، ويقولون إنه كان شيوعيًّا رغم أنني لا أتذكر ...

قاطعته قائلة: لم يسبق أن أشاروا إليه هكذا.

استطرد قائلًا: نجح فريق الغطس في انتشال السيارة، وكانت توجد حقيبة مليئة بالمستندات والأوراق في المقعد الخلفي، لكن التلف قد أصابها من المياه حتى لم يعد ممكنًا تحديد طبيعة هذه الأوراق والمستندات.

– ذلك أفضل.

– ولا شيء آخر سوى عمل والده في البرلمان.

– ألم يذكروا شيئًا عن بوبو؟

– لا ... من حسن الحظ.

قلت في محاولة مني لتغيير الموضوع: كان جميلًا فهل استمتعت باللعب؟

أجاب جراهام: لقد هزمني بوكر للمرة الثانية هذا الأسبوع.

كان جراهام وصديقه المحامي يلعبان الجولف معًا، وكثيرًا ما كانا يتشاجران ويتبادلان الاتهامات، حتى إنني تعجبت لتلك الطريقة التي يهاجم بها المحامون بعضهم البعض بكل قسوة ثم يجلسون سويًّا كالإخوة في رقة ووداعة أثناء راحة الشاي، إنها المهنة الواحدة بكل أساليبها الغريبة والفزع الذي يصيبني عند رؤيتهم وهم يشربون الخمر معًا في نادي الجولف.

مارسنا الحب معًا بالأمس أمام المدفأة، فجاءني صوته على التليفون متحررًا وهو يتحدث عن أشياء عادية، فتذكرت أنه ظل صامتًا وهادئًا فوق جسدي مدة طويلة في الليلة الماضية.

تحدثت مرة أخرى عن الزهور قبل انتهاء المكالمة ولم تراودني أية رغبة في الخروج، وإنما شعرت براحة فملأت الفازة بالماء حتى نصفها وألقيت بالورقة والسيلوفان في سلة المطبخ، ثم وضعت الطعام الذي اشتريته في الثلاجة ... جلست في الشرفة فوق مقعدي المصنوع من البلاستيك والألومنيوم في مواجهة الشمس وأشعلت سيجارة وفكرت: إن كثيرًا من الأشياء التي يفعلها المرء من أجل الآخرين لا تمثل شيئًا ولا تتعدى كونها عادة سيئة مثل السجائر، خاصة وأنني لم أفكر في الزواج مرة أخرى ... لا أعتقد أنني سأتزوج مرة أخرى لكنني أتحدث عن ماكس على أنه زوجي الأول مما يعني أنني أتوقع الزواج من آخر ... حسنًا، إن المرء في الثلاثين لا يستطيع التأكد تمامًا من أفعاله ... لكنني في الثامنة عشرة كنت متأكدة بأنني سأتزوج وأنجب طفلًا، وهذا ما حدث بأسرع مما كنت أتوقع رغم أن ماكس لم يكن مطابقا لمواصفاتي، إلا أن شيئًا ما في أعماقي توافق مع الطراز الذي كان عليه.

كان الزواج سبيلًا لأن أعيش حياة المرأة مهما كانت هذه الحياة، وطريقًا للابتعاد عن حياة الوالدين وأساليبهما ... لقد عشت وسط النساء وبخاصة نساء الطبقة المتوسطة ورأيتهن وهن يذهبن للسوق ويتولين شئون عائلاتهن براحة ودون استياء، لكنني كنت أريد العيش مع رجل غير أبي ... رجل يمثلني.

عرفت جراهام في يوم المحاكمة حين كنت مطلقة من ماكس، وقد قالوا لي إنه الرجل المناسب لقضيتي، غير أنه لم يستطع أن يقدم أهم وقائع الدعوى، فانتقلت القضية إلى شخص آخر، لكنه ظل مهتمًا بها، وكثيرًا ما ساعدني عندما كان ماكس في السجن دون أن يوجه لي أية أسئلة، فأحسست معه وكأنني أمام طبيب يعرف كل شيء عني.

كان جراهام متزوجًا من زميلته التي اعتاد أن يتجول معها منذ أن كانا زميلين في المدرسة، والتي ماتت من التهاب في أغشية الرأس وكانت أصغر مما أنا عليه الآن، وما تزال المفارش — التي كانت تطرزها بنفسها — باقية في منزله.

احتفظت أنا وجراهام بجانب النزاهة في العمل ولم نستغل عملنا في تحقيق المال أو تأدية الخدمات لقوم من ذوي لون معين، فقد كان جراهام يدافع عن المتهمين في قضايا سياسية دون النظر إلى ما قد يناله من ترحيب من أجل التصدي لمثل هذه القضايا، بينما كنت أعمل أنا في تحليل البول والبراز والدم لاكتشاف البلهارسيا والدودة الشريطية والكلوسترول في معهد البحث الطبي، ولقد كان من دواعي سروري أنني اكتشفت أن الدم والخراء والبول هو نفس الشيء لدى مختلف ألوان البشر بغض النظر عن لون بشرتهم أو المكان الذي جاءوا منه.

استمتع كلانا بالآخر حين كنا معا بأوروبا في العالم الماضي، وقد تقاسمنا نفس الحجرة ونفس السرير في ألفة ومودة دون أن يترك أحدنا الآخر إلا بعض الوقت، ولم يساورنا أي شعور بالغضب أو السخط، وبعد عودتنا عشنا معًا كما تعودنا بدون أن نمارس الحب أحيانًا لمدة أسبوعين ينشغل فيهما كل منا بأمور الحياة.

كنت جالسة بشرفتي في مواجهة الشمس ولم أكن في حاجة إليه.

هل هو الحب أم أنه مجرد اتصال جنسي؟ ... إنه شكل جديد من أشكال العلاقة ... شكل لائق بما يكفي لا يؤذي أحدًا ولا يسبب لنا الأذى، لكنني أعتقد أن جراهام سيتزوجني إذا أردت ذلك وعندئذٍ سيتغير كل شيء ... هل باستطاعتي أن أجد أفضل الرجال في هذا الوقت وهذا البلد؟ ... إن جراهام لا يوحي بشيء ويعيش كرجل أبيض ... إنه يعيش بقناعاته الخاصة ويفعل ما درج على فعله ودائمًا ما يفي بوعوده، وعندما أتحدث معه في التاريخ والسياسة أعرف مدى تردده في قول الحقيقة، لكنه حين يكون داخلي كما حدث في الليلة الماضية فإنه يكون قويًّا بل أفضل من أي شاب في مثل عمري، حتى إنه يظل بداخلي أحيانًا لفترة طويلة وهو منتصب بقوة لدرجة أنني أكاد أشعر بقضيبه الغليظ عندما أضع يدي فوق بطني ... إنه يخترق جسدي ويملؤني ولا يتكلم وهو يغلق عينيه ويضم جفونه الرقيقة وعندما يصل إلى الذروة أجد نفسي ممسكة به وكأنني أخنقه فأشعر به دافئًا وكبيرًا.

هكذا يكون جراهام، لكنني أجلس الآن في شرفتي مستمتعة بشمس منتصف النهار ولا أفكر في ذلك إلا من خلال حيز صغير في تفكيري وعقلي الباطن.

شعرت بالدفء فغلبني النعاس وكان سرب من الحمام ينقر الأرض أمامي ولم أستطع رؤية الطفلين وهما يسددان طلقات المسدس المائي إلى بعضهما البعض ... كانت إحدى الطلقات قد وصلت إلى قدمي وكان بعض الرجال يفترشون الحشائش عند الرصيف ... إنهم من الرجال السود الذين يرتدون زي العمل. إنهم يفترشون الأعشاب بجوار دراجاتهم التي يعملون بها ويمارسون احتجاجهم وهم يتبادلون الحكايات عن الشركات ... كانوا يشربون البيرة من الصناديق الحمراء الكبيرة في الشمس ... كنا جميعًا في الشمس فعرفت أن ثمة شيئًا يشترك فيه الناس جميعًا، وعرفت أيضًا السبب في عدم حاجتي لجراهام أو أي شخص آخر لأنني أنتمي لأولئك الناس الذين يشاركونني لحظات التفكير والتأمل والتمرد، ثم شعرت أخيرًا أنني في وطني بالرغم من كل شيء.

كان إيقاع حديثهم الذي أعرفه جيدًا يتصاعد بشكل متقطع ومتفرق ولم أستطع أن أفهم كل كلامهم وتساءلت بيني وبين نفسي: إنهم لا يملكون وقتًا كافيًا لأي شيء سوى الرقاد فوق الحشائش.

دخلت شقتي وتناولت كسرة خبز وضعت بداخلها شريحة من لحم الخنزير، وما إن انتهيت منها حتى استبد بي التعب وغلبني النعاس فرقدت فوق الكنبة المجاورة لسرير بوبو وكان الجو دافئًا تحت البطانية.

لم أستطع النوم تمامًا، وكلما فتحت عيني وتجولت بهما في أرجاء الحجرة أبصرت الأعشاب البحرية وهي ترتفع من أعماق المياه المتقلبة التي اندفعت إلى أنف ماكس وملأت فمه حين أراد أن يتنفس ... لقد اخترق الماء المالح البارد كل جسده وكان يقذف من فمه وأنفه فقاعات الحياة الأخيرة قبل أن يغوص إلى أسفل حيث الأعشاب الضارة مع حقيبة الأوراق التي لا يعرف أحد محتوياتها، فهل هي مجرد أوراق أم أنها بعض الخطط والخطابات؟

لا أحد يعرف ... لقد نجح ماكس في الموت!

كنت ما أزال راقدة في الحجرة حين ملأت الدموع عيني ولم يكن بكائي بسبب وفاة ماكس وإنما للطريقة المؤلمة التي مات بها ... تفتحت الزهور بجواري فانتشرت في الحجرة الدافئة رائحة عطرة، وعندئذٍ شعرت بأنني ما زلت على قيد الحياة.

كنت أعرف كل شيء عن ماكس والمعرفة تعني الغفران، لكنها أبدًا لا تعني الحب الذي يحتاج لمزيد من المعرفة ... لقد ترك ماكس الجامعة عندما تزوجنا والتحق بوظائف عديدة ومختلفة لكنه لم يستمر في أي منها مدة طويلة، وكنا مشغولين بأشياء أخرى كثيرة كالاجتماع في حجرات الناس من أمثالنا وفي أحياء السود وفي الهواء الطلق، وكنا نشترك في

المظاهرات تعبيرًا عن رفضنا لسياسة التمييز العنصري ... كنا مجموعة قليلة تتكون من الهنود والأفارقة والملونين والبيض من بينهم سولي وديف وليلي وفاتيما وأليس وتشارلز، وكانت فاتيما تداعب بوبو وتهتم به، أما ديف فكثيرًا ما كان يضحك بسبب حالة ماكس المزاجية المتقلبة، وكنا جميعًا نحلم بمستقبل ما يحتاج لقدر من الشجاعة لم نكن نعرف مقدارها.

ترك ماكس وظيفته الأولى عندما أراد الاشتراك في مؤتمر الاتحاد التجاري ولم يسمحوا له بإجازة لمدة ثلاثة أيام، أما الوظيفة الثانية فقد تم فصله منها بعد أن استغل ساعات العمل مرات كثيرة في إقناع موظف الآلة الكاتبة بنسخ بعض الأوراق الخاصة به، لكنه استطاع في كل الوظائف أن يحصل على ما ساعدنا في الاستمرار ... كان ماكس يقرأ في السياسة أثناء فترة الجامعة نتيجة لشعوره بضرورة المعرفة، وكان يرى في دراسته للفنون انطلاقًا للعقل والخيال على عكس والده الذي قال: إن دراسة الفنون على أية حال لا تضر بالتجارة والمحاسبة، وسوف يلتحق بإحدى شركاتي.

كانت الاجتماعات وحلقات النقاش تبدأ بعد الانتهاء من ساعات العمل وتستمر حتى وقت متأخر من الليل، وهكذا لم يستطع ماكس أن يجد وقتًا لمتابعة دروسه ومواصلة دراسته، وعندما بلغ بوبو شهره الخامس عدت لعملي من جديد، وكانت «دافن» الرقيقة والقادمة من جوهانسبرج تقطن معنا للعناية بالطفل كما كانت تعتني بماكس وهو صغير في بيته، وعندئذٍ فكرت جديًّا في عودة ماكس للجامعة والتفرغ لدراسته، لأن عودتي للعمل تعني عدم حاجتنا للسيدة فان دن ساندت مرة أخرى بعد أن كنا نطلب منها المساعدة من حين لآخر، وبخاصة بعد ولادة بوبو ... فكرت في عمل إضافي بالليل بعد الانتهاء من وظيفتي النهارية، فتناقشنا في الأمر، ولأنني لا أجيد العمل على الآلة الكاتبة قلت في النهاية: سأعمل مرشدة تقود الناس إلى مقاعدهم في السينما رغم ضآلة ما يدفعون في مثل هذه الوظيفة.

راقت له الفكرة وقال معلقًا: ليز سوف تعمل في السينما.

قلت: ولمَ لا؟ ... تسريحة شعر مناسبة وبطارية.

كان عملي في الشركة الخاصة بعلم الأمراض قد أتاح لي فرصة عمل أخرى أفضل من العمل في السينما حين طلب مني أحد الأطباء صياغة وكتابة بعض ملاحظات البحث، وكان العائد المادي أكبر كثيرًا من العمل في السينما، بالإضافة إلى إمكانية القيام بهذا العمل في البيت إلا أن ذلك هو ما أثار غضب ماكس حيث كانت ملاحظات الدكتور فاربر تملأ

الشقة الصغيرة الضيقة وتشغل مكان أوراقه وكتبه الخاصة حتى كاد يفقد اهتمامه بعملي الإضافي.

لم يستطع ماكس أن يتمرد تمامًا على عائلته ومن هم على شاكلتهم ولم يصل إلى حد الإشباع في اقترابه من الآخرين، لأن زواجه بي جعله دائم الحاجة لعائلته ... كنت مدركة لتمرده وشوقه الجارف في الاقتراب من الآخرين، لكنني فشلت في مساعدته فلم يستطع — رغم انتمائه إلى خلية شيوعية في الجامعة — أن يتبنى الخط الماركسي في نشر أفكار الأفارقة الخاصة حتى عندما بدأ الحزب الشيوعي يعمل مرة أخرى في الخفاء ورغم نشاطه الواضح إلا أنه لم يستطع فقد كان صغيرًا وذا تجربة متواضعة ... حاول أن يفعل شيئًا بعد حملة المعارضة فالتحق بالحزب الليبرالي الذي يدين العنصرية، ثم شارك الأعضاء في مؤتمر الديمقراطيين غير أن الأفارقة أنفسهم لم يتعاملوا مع الحزب الليبرالي بجدية، لكن تمرد ماكس على مجموعة البيض جعلهم يشعرون بحسن نيته رغم إيمانهم بأن أي حركة أفريقية تبحث عن التأييد الجماهيري لا يمكن أن تضم أعضاءً من البيض، وكنت أيضًا من الأعضاء المشاركين في مؤتمر الديمقراطيين، لكنني لم أعمل مع ماكس وإنما مع المجموعة السرية التي تطبع النشرات للمؤتمر القومي الأفريقي وما إلى ذلك ... عرفت عندئذٍ أن المرء يكتسب نوعًا من الصداقات القوية الغريبة عندما يعمل بفزع في الخفاء وهو يخشى هجمات الشرطة، وكان إيماني قويًّا بما أفعل وبالناس الذين أعمل معهم، ولم تفارقني الشجاعة الكافية التي جعلتني على مستوى ما كنا في حاجة إليه، لكن وجود بوبو بعد ذلك حد من نشاطي ولم أستطع — كالآخرين — أن تكون أنشطتي السياسية في المرتبة الأولى لأن فكرة اعتقالي أنا وماكس في وقت واحد كانت تعني أن تتولى السيدة فان دن ساندت أو والداي أمر بوبو، وكان ذلك بالنسبة لي استسلامًا وتنازلًا حقيقيًّا، كما أن ماكس لم يكن قادرًا على تلبية احتياجات أي شخص آخر حتى لو كان ابنه، وهذا ما كانت تدعوه أمي بالأنانية، ورغم إعجابها بأفكاره إلا أنها كانت تراه مارقًا ومجنونًا ... نشأ ماكس في وسط أرستقراطي ولم يكن يذهب إلى المدرسة أو يعود منها إلا في سيارة خاصة وكانوا يقدمون له الخدمات وكأنه أحد الأمراء، وبعد زواجنا أصابنا الفقر، لكنه لم يتنازل عن احتياجاته الضرورية القليلة كشراء زوج من الأحذية، وكان يغضب بشدة وبطريقة متعجرفة حين يطالبنا أصحاب المحلات بسداد ثمن الكتب أو البراندي ويطلب مني التعامل معهم ... إن ماكس لا يعرف التعايش مع الآخرين، وكان يجلس صامتًا في حجرته بالمزرعة يواصل القراءة لمدة ساعات طويلة ويفكر في متاعب الإنسان ... لقد اعتاد على الذهاب إلى فورد سبيرج بمصاحبة بوبو تاركًا له فرصة اللعب مع الفتيات الصغيرات في البيوت الهندية

الكثيرة، وفي طريق عودته كان يروق له السير على الأقدام فعرف معه بوبو مجموعة من الناس لم يكن من اليسير معرفتها. وذات مرة اتصلت بي فاتيما لتخبرني برغبة والدة متعهد عربات الكارو في معرفة رقم تليفوني ... كان ماكس قد ترك بوبو عندها وحين أزعجها ببكائه ولم تستطع أن تقدم له شيئًا طلبت الاتصال بي ... كانت السيدة ماريا روبرتس امرأة رائعة، فحاولت أن أشرح لها أن ثمة شعورًا طبيعيًّا بالمسئولية تجاه الغرباء أيضًا وليس تجاه العائلة الخاصة والأصدقاء فقط، وأخبرتها أن بوبو هو السبب في أن أعضاء المنظمة لم يستطيعوا الاعتماد علينا.

قالت: أوه ... لكننا نستطيع الاعتماد عليك.

شعرت بالخجل حين أكدت قدرتي، ولم أستطع التخلص من خجلي إلا بعد وقت ليس بالقليل.

لم تكن الوظيفة بالنسبة لماكس سوى مرحلة مؤقتة تفي بالحاجات الضرورية، وذات يوم طلبوا منه أن يكتب شيئًا للصحافة بعدما رأوا بعض كتاباته الجيدة وشعروا برغبته أن يكون محررًا في الصحف، لكن القائمين على السلطة التنفيذية كانت تساورهم الشكوك تجاهه خوفًا من استغلال أفكاره في الكتابة، وخشية أن تتسبب هذه الأفكار في تورطهم.

كان يجلس في اللجنة هادئًا بملابسه القذرة ولحيته الشقراء واضعًا يده المتوترة فوق فمه وكان متهمًا من الجميع بالرغبة في الفعل، لكن أصحاب الخبرة كانوا يؤمنون بلا جدوى المخاطرة ... كان ماكس ينظر إليهم بعينيه المشرقتين ويقول في النهاية بعد أن فهم خطة العمل: سوف أذهب للاتحاد التجاري غدًا، وسوف أتحدث معهم على أية حال لأنه يجب أن نقترب من مجموعة الشباب من أمثال تلولو وموجادي وبراين دلاليزا.

لم ينتبه الآخرون لكلامه، فقد كانوا يعرفون ما يجب عمله والناس الذين يجب الاقتراب منهم.

كان ماكس في حاجة ماسة لمزيد من الخبرات والاحتكاك بالآخرين للخروج من دائرة كتب التاريخ والفلسفة والنقد الأدبي التي كانت مفروضة عليه، والتي قرأتها كلها أثناء انشغاله في الاجتماعات وللتخلص من ذاتيته وعاطفته الجياشة وقدرته الهائلة على التخيل التي هي أهم مميزاته في الكتابة ... كانت قدرته على الإقناع بلا حدود، فكان من اليسير أن يصبح محاميًا مرموقًا وينعم بعضوية النادي مع ذوي البشرة البيضاء، وربما كانت قدراته تؤهله لأن يكون رجل سياسة من الطراز الأول أو ثوريًّا عظيمًا إذا ما سنحت له الفرصة أو امتلك وقتًا إضافيًّا، ولكن كما قال فرانز كافكا: «إمكانياتي مؤكدة وإنما تحت أي حجر تختبئ.»

عاد ماكس ذات يوم للمنزل بصحبة رجل مبتل بالماء يدعى سبيرزكواب ... إنه ناظر المدرسة السابق الذي يتحدث بصوت مبحوح وناعم.

قال لماكس: إن الشيء الخطير يتمثل في عدم رؤيتنا لما سيترتب عليه نضالنا، كما أننا لا نفكر جديًّا فيما يحدث هناك في الجانب الآخر ... يجب أن تعرف طريقك أيها الرجل، فإذا ما سألت أحدًا من الشباب في المدينة عن حياة الاستقرار مع البيض فإنه سينظر إليك نظرة حالمة من عينيه وهو يفكر بالحصول على سيارة ووظيفة ومكتب، وهذا كل ما في الأمر ... إنهم يحلمون بتصاريح المرور التي لا يحملها السود ولا يعرفون شيئًا عن أفكارنا ولا يؤمنون بمجتمع شيوعي، ولذلك فالحلم بعيد ويصعب تحقيقه ... إنهم يريدون فقط التحكم في كل المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية وامتلاك زمام الإنسان أسود في بلده المستعمرة السوداء، بينما نطالب نحن بتأميم البنوك والمناجم والثروات المعدنية الهائلة وتحويلها إلى ملكية للشعب، وهذا في حد ذاته مجرد حلم جميل لا يتعدى كونه قصيدة رائعة؛ إذ كيف يمكن أن يتم التوزيع العادل؟ وهل خطر ببال أحد أن يتحدث في هذا الشأن؟ ولماذا يجب علينا أن نستورد الحل من الشرق أو الغرب؟

لم يتوقف سبيرز عن الحديث في ذلك اليوم وهو يستعرض كل شيء عن الاشتراكية والتقاليد والأعراف الإنسانية، وفي يوم لاحق سمعته يقول: نحن نريد دولة ديمقراطية جديدة، نعم ... إن روح القبيلة والتمسك بالقبلية يجعلان كل شيء دمويًّا وصعبًا وها هي الحكومة البيضاء تسير في اتجاه القضاء على القبلية، إلا أنها تساعد على تقويتها وإبرازها مرة أخرى في صراعها مع البانتو ... يجب أن نتناول العناصر الديمقراطية في القبيلة ونستخدمها في اكتشاف مذهب جديد للاشتراكية العلمية ... اشتراكية نابعة من أفريقيا ولأجل أفريقيا، فنحن لسنا في حاجة لتبني معتقدات الغرب أو الشرق، كما أننا نعي مساوئ الاحتكار ونؤمن بالإنسان والأرض التي هي أرض القبيلة ... يجب أن نعمل من أجل رفاهية المجتمع ونعتني ببعضنا البعض وبأطفال بعضنا البعض وهذه هي الروح الجديدة التي يجب أن تسود الأمة ... أليس كذلك؟ ... إن روح الاشتراكية التي نريدها لن تأتي إلا من الداخل.

توقف ماكس فجأة عن الانتباه وراح يقلب في الكتب وكومات الصحف، ثم قدَّم له كتابًا، فقال سبيرز: نعم ... نعم ... أعرف لكن الاشتراكية الأفريقية لا يمكن أن تكون نتاج تفكير رجل واحد، وإنما ينبغي أن تتحقق عن طريق كثير من المفكرين الذين نفتقدهم ... إن لدينا كثيرًا من الأبطال السياسيين لكنهم ليسوا مفكرين وعلينا أن نناقش ذلك يا رجل.

كان ماكس يملك طريقته في النقاش والمحاورة وكان يعبر بكلمات قليلة عما يريد قوله، فوقف أمام الرجل الذي كان يرتدي معطفا قذرًا يحلو له أن يرتديه دائمًا في أكثر الأيام حرارة، وقال: نعم، لكن الاثنين يجب أن يسيرا معًا، فلا بديل عن الاشتراكية الأفريقية فلسفة للنضال.

لم يكن سبيرز يتوقف عن الشراب حتى يفقد السيطرة على قدميه، لكنه أبدًا لم يفقد السيطرة على لسانه، ولم أستطع إخفاء إعجابي به، ولقد أنشأ جماعة صغيرة أطلقوا عليها اسم «أومانيا نوجاماندلا»، ومعناها «دعنا نتعاون»، وهي الجماعة الداعية إلى حركة اشتراكية أفريقية، وكان معظم أفرادها من الرجال الذين انفصلوا عن عضوية المؤتمر الوطني الأفريقي والمنظمة السياسية الأفريقية، ولقد رأيت في انضمام ماكس إليهم خطأً كبيرًا، وأصابتني الدهشة لنسيانه كل شيء عن أولئك الذين عملنا معهم في منظمة الديمقراطيين والمؤتمر الوطني الأفريقي، لكنني بعدما رأيت الحدود التي يقفون عندها شعرت برغبة شديدة أن يكون ماكس على صواب.

ظل سبيرز ملازمًا لنا معظم الوقت وراح بمساعدة ماكس يصيغ منهجه عن الاشتراكية الأفريقية.

قال ماكس: إذا لم يصبح ذلك المنهج إنجيلًا للثورة الأفريقية فإنه على الأقل سيصبح سلسلة من الرسائل يمكن استخدامها كدليل.

وردد سبيرز وهو يشرب: يجب أن نقاوم يا رجل.

وراح يرددها وهو مخمور، ولكن بثقة وإيمان لا يستطيع المرء معهما أن يضحك عليه وهو يترنح ... كان يكرر عبارته بمزيج من لهجة الهوسا ولغته الإنجليزية العذبة.

ظل سبيرز يسهر مع ماكس كل يوم وحتى وقت متأخر من الليل، ولم يتوقف ماكس عن الكتابة وإعادة الصياغة بالاستعانة بذاكرته وببعض الملاحظات، وذات يوم — حين كان مشغولًا بعمله — عدت من العمل فوجدته متذمرًا من بكاء بوبو الذي أعاقه عن العمل وتسبب كثيرًا في تشتيت أفكاره، وكان وجهه كوجه طفل تبدو عليه علامات الإحباط الشديد ... سارعت باصطحاب بوبو إلى الشارع لكنني لم أستطع أن أفعل شيئًا من أجل وجه ماكس.

بعد عودتي من الشارع رأيته يتبادل النقاش مع سبيرز وهو متوتر دون أن يستطيع خلال ساعات أن يلتزم مكانه في المقعد على العكس من سيرز الذي كان عنيفًا ولكنه هادئ ... كان سبيرز يتحدث وهو جالس إلى مائدة المطبخ أحيانًا وأنا أقوم بتحمير السجق،

ويواصل حديثه حتى حين يتسلق بوبو كتفَيه، ولقد اعتاد أن يناديني قائلًا: حبيبتي. ولما كانت الخمر تلعب برأسه قليلًا كان ينفرد بي في ركن المطبخ، فأقول له بأنني أكره رائحة البراندي، وعندئذٍ يربت فوق يدي بأسف ويقول: إنني أنسى ذلك يا حبيبي.

لقد فشل سبيرز في معظم علاقاته النسائية بسبب البراندي، لكنه كان رقيقًا معي ومع بوبو وماكس الذي كان يعارضه كثيرًا ويتجادل معه ويضغط عليه من أجل مساندة السود الذين يحبهم ويتعاطف معهم بطريقة تختلف عن حب بقية البيض لهم ... لم يكن ماكس يحبهم من أجل الوجاهة الاجتماعية، ولم يكن حبه زائفًا، فقد كان يؤمن بهذا البلد ويشعر بالدفء بينهم ... إنه ماكس الذي انفصل عن لونه حين انفصل عن طفولته وتمرد عليها، ولم أكن أدري إذا ما كان يحبني حقًّا أم لا، لكنه كان تواقًا لممارسة الحب معي وإرضائي ... لا ... لقد كان يبغي سماع إعجابي به وبأي شيء يفعله، وأيًّا ما كان الأمر فإنني لا أستطيع التفكير في سواه لأن الحياة جمعتنا معًا في مشهد واحد أمام عيون الآخرين، ولأن هناك شيئًا ما يجعل اثنين من البشر معًا، وهذا ما أطلقت عليه اسم الحب، خاصة وأن بوبو حمل اسمه، لكن بوبو هو الذي أبدى أسفه لعدم قدرته على حب ماكس، فماذا كان يعني؟ أهي عدم حاجته لأبيه أم أنه مجرد دفاع لأنه لم يستطع الوقوف ضد موت أبيه؟

كنت أيضًا أتوق لممارسة الحب مع ماكس ولم أبخل بتقديم إعجابي الذي يريده في محاولة مني لإرضائه من أجل أن يفعل الصواب، فهل كان ذلك حبًّا؟ ... أتذكر أن ماكس كان قويًّا وممتعًا في السرير، لأن الإنسان حين يكون خربًا فإنه يمارس الجنس ببراعة، حتى إنني كنت أردد مع كل ارتعاشة قائلة: ليتني أموت هكذا.

توالت بعد ذلك النكبات والإحباطات وظللنا ننتقل من مكان إلى آخر في السنوات الثلاث الأولى من أجل حياة أفضل، لكننا كنا في الحقيقة ننتقل من وضع مستحيل إلى آخر أكثر استحالة، ولم أستطع براتبي المتواضع أن أحصل على شقة كبيرة بدلًا من الغرفة الواحدة التي نعيش فيها مع طفل ونعمل فيها أيضًا ... لم يكن مسموحًا للأفارقة بزيارتنا في المبنى، وكان كل شيء يحدث لنا بسرعة وبدون وعي منا، وفي أثناء ذلك تعرف ماكس على فتاة قادمة من كامبريدج ذات وجه أحمر كبير كانت تريد عمل شيء ما في أفريقيا وبعد انتقالها من مقاطعة إلى أخرى والخوف من ترحيلها بالقوة عن طريق الحكومة البريطانية الاستعمارية عاشت معنا بعض الوقت، وتعمقت صداقتها بالقوميين الأفارقة، وقد شاركت في بعض الأعمال المفيدة ككتابة بعض الأشياء لماكس على الآلة الكاتبة ...

كانت ترتاد الحفلات وتعود إلى البيت بالأسلحة في سيارتها الصغيرة المستعارة، وكثيرًا ما كانت ترافق النساء أمسياتهن حين يذهب رجالهن مع فتيات أخريات ... ساعدت سبيرز أيضًا في ترتيق حاجياته والعناية بمعطفه، وكانت ترافقه في جولاته المعقدة.

استيقظت ذات ليلة فوجدتها ترتدي ملابس توحي بالذهاب إلى نزهة، لكنها كانت تحمل بندقية رش وحين أبصرتني قالت: الذهاب إلى الحرب. ثم خرجت ببطارية صغيرة وظلت تنتظر أي شخص لاصطحابها.

عدت للنوم وقلت لماكس: عيد السنجاب المرح في منتصف الليل!

قال: أوه ... واكو.

كان ذلك المزاح في اسمها من اختراعه؛ لأنه هو وسبيرز يعاملانها بدلال خادع كالذي يبديه الرجال تجاه الفتيات غير الجذابات.

قلت: إن سبيرز يضايقها ... لا يجب أن يضايقها فهي تحترم كليكما، كما أنها في حاجة لرجل.

كانت تطلب منا دائمًا أن نذهب معها للحفلات حيث الليبراليين من البيض والعاهرات السوداوات وبعض الناس عديمي الرأي الذين يؤيدون كل شيء وأي شيء، وقد أدهشني ترحيب ماكس بالذهاب حتى أصبح عمله مع سبيرز على غير ما يرام، وأصبح كلاهما بصحبة سانبون البدنية يظهرون في تلك الحفلات، ولكن كغرباء لا يعرف أحدهما الآخر، ورأيت ذلك نوعًا من الخبل، ولم أستطع الذهاب معهم لأنني لا أقدر على السهر حتى الثالثة صباحًا بدون أن أشرب كثيرًا، وإذا حدث فإنني لن أستطيع الذهاب للعمل في اليوم التالي.

عند عودتي إلى المنزل قادمة من المعمل كان ماكس يسدد نظراته الخاطفة نحوي تعبيرًا عن الضيق والتذمر من صراخ بوبو في المطبخ أو الحمام، وذات ليلة كان يتحرك في الحجرة كقطعة الفلين التي أدركتها حركة المد والجزر حتى وصلت إلى رمال الشاطئ وهو يفتح البيرة ويقدم الجبن ويلملم الأوراق ... أشار بالسكين بطريقة فرحة وقال مخاطبًا سانبون: تعالي يا سانبون فأنت تعرفين مكان الأوراق التي أعطيتها لك ... لا تقفي هكذا وهيا تحركي يا ذات الأثداء الكبيرة والجسد البدين.

هكذا كانت طريقته معها في الكلام، لكنها بكت هذه المرة، ثم عرفت بطريقة ما أنه مارس معها الجنس.

وقف ماكس ممسكًا بالسكين الملطخة بالجبن وأشار لها، لكنها اندفعت خارجة من الحجرة فاهتزت أردافها الكبيرة وأثدائها البدينة، وحين أسرعت خلفها التقيت مصادفة

بدافن التي انتهت من كي فستان أنيق كان يجب أن تسلمه لها فقلت: هاتي الفستان يا دافن.

رفعت دافن وجهها وقالت: لماذا تبكي؟

وفي محاولة للدفاع عن نفسه قال ماكس: لقد كانت تحاصرني بثديها الكبير المتلئ وقد حدث ذلك بعد الانتهاء من الحفلة وأنا مخمور تمامًا.

همست لنفسي: إنها ليست من طراز النساء الذي يسبب الغيرة ... لو أنني أغار منها لاختلف الأمر ولكن لماذا مارس معها الجنس؟ ... إنه يعرف السبب كما أعرفه ... كان في احتياج شديد للاستحسان والإعجاب، لكنه مارس معها الشذوذ فعاشرها من الخلف، وكنت على استعداد لأن أغفر له النوم مع امرأة أثارت شهوته في لحظة ضعف، لكنني لست مستعدة للغفران لأنه أهان جسدها الكبير.

لم تكن هي المرأة الوحيدة في حياة ماكس فقد كان يعيش مع إيف كنج في منزلها أثناء طوارئ عام ١٩٦٠م، وقبل ذلك كان نفس الشيء مع روبرتا الجميلة التي هي الآن تحت الحراسة، ولقد سببت شئون الحب هذه آلامًا كبيرة بالنسبة لي جعلتني أستسلم وأعيش تجربة مماثلة مع رجلين مختلفين أملًا في إعادة توازني بشكل ملائم، ولم يكن يهمني عدد النساء اللاتي عرفهن ماكس لأن ذلك لا يغير من الأمر شيئًا، خاصة وأن الواقع قد فرض نفسه ... واقعنا، ظروف حياتنا، الغرفة الواحدة، أحلامنا وأفكارنا وذلك التعارض الشديد بينهما، عائلة ماكس ونجاحهم المتواصل وحصولهم على المكاسب حتى ولو عن طريق التدمير والخراب، تمرده على بني جنسه ورغبته في الانتقام ... كل شيء ... كل شيء، وليتني أعرف هل كان يحبني أم أنه كان يحب أي امرأة أخرى؟ ... إن ماكس لم يكن مشغولًا بمعرفة الإجابة عن هذا السؤال.

اختفى سبيرز وتم القبض على بعض أعضاء «أومانيا نوجاماندلا»، وبعد الإفراج عنهم انهارت الحركة وعاد معظمهم مع سبيرز للانضمام مرة أخرى للمؤتمر الوطني الأفريقي الذي تم الحظر على أنشطته فيما بعد وأصبح يعمل في السر، وكانت الأوراق الخاصة بمنهج الاشتراكية الأفريقية في مأمن من هجمات الشرطة لأنني كنت أضعها في المعمل داخل حقيبة، وعندما أخبرت سبيرز بذلك ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، ولم نعد نراه بعد ذلك هو وصديقنا الآخر وليام زابا الذي اعتاد أن يزورنا دائمًا ودعا الساسة الأفارقة النشيطون إلى الابتعاد عن منازل البيض ورفض صداقاتهم ومودتهم، وأثناء ذلك كان ماكس في كيب تاون لقضاء ثلاثة أشهر امتدت إلى ستة أشهر عمل خلالها في إحدى الصحف الراديكالية الجديدة، وحين سافرت مع بوبو إلى هناك لقضاء أسبوعين

من أيام الكريسماس كنا نسير نحن الثلاثة عبر الساحل الصخري الوعر بمحاذاة البحر حيث الطحالب البحرية القادمة من أعماق المياه، وكنا نقول لبوبو: انظر هناك ... انظر هناك.

لكن نظرات بوبو لم تكن تتجاوز أصابعنا التي نشير بها، وذات مرة نظرت إلى الحقيبة في يد ماكس وتساءلت: هل هي الأوراق الخاصة بمنهج الاشتراكية الأفريقية؟

وتساءلت أيضا وأنا أستمتع بأشعة الشمس المناسبة فوق سطح المياه: كيف تعيش النساء الأفريقيات اللاتي يحفظن أنفسهن وأطفالهن ... لا بد أن هناك كثيرًا من الأشياء التي ينبغي على المرء أن يتعلم منها ولا بد أن ماكس على صواب لأن الإنسان إذا أراد أن يحقق شيئًا فعليه أن يفعله بمفرده. نظرت إلى طحالب البحر الطافية فوق الماء وقلت لماكس: هل ستنتهي قبل أن تبدأ مثلما حدث كثيرًا من قبل؟

ظل ماكس صامتًا ولم أسمع منه إجابة شافية، وكانت تلك آخر أيامنا التي عشناها معًا.

عاد ماكس إلى جوهانسبرج وتم الطلاق بيننا ثم اختفى شهورًا عديدة عاود بعدها الظهور، فقالوا إنهم طردوه من البلاد بطريقة غير شرعية، قبل أن يعود مرة أخرى، لكنني لم أستطع معرفة المكان الذي ذهب إليه أو الناس الذين قضى وقته معهم، غير أنني سمعت من سو لي صديقنا الهندي القديم أنه أمضى وقتًا برفقة بعض الناس الراغبين في تشكيل مجموعة ثورية سرية من البيض.

سمعت رنين التليفون في الحادية عشرة مساءً فقال جراهام: ليز ... هل أنت ليز؟ ... تذكري أن تشتري صحيفة الصباح لأنها ستنشر أخبارًا هامة عن ماكس وعن الظروف المحيطة بالحادثة.

كان صوت جراهام على التليفون متوحشًا وهادئًا، فتراءت لي المياه وهي تغطي كل شيء ثم توقفت الفقاقيع عن الارتفاع، وعندئذٍ قلت لنفسي: نعم ... كانت توجد إمكانيات ولكن تحت أي حجر؟ ... تحت أي حجر؟

تذكرت قنبلة ماكس التي وصفوها في المحكمة بأنها مصنوعة من علبة مليئة بخليط من الكبريت ونترات البوتاسيوم والفحم وكيف أنهم عثروا عليها قبل أن تنفجر، وكيف أنهم قبضوا عليه في خلال أربع وعشرين ساعة ... لقد أصبح كل شيء أسوأ مما كان وتوالت هجمات الشرطة وحملات الاعتقال والسجن بدون محاكمة وأُصيب البيض الطيبون مع خدمهم بالدهشة من جراء القنابل وسفك الدماء كما حدث لهم أثناء طوارئ عام ١٩٦٠م

عندما أطلق البوليس النار على الرجال والنساء والأطفال خارج مكتب تصاريح شار بيفيل، ولم يتحملوا مشهد الدم وكانت نصيحتهم الإنسانية المهذبة هي أن إحداث التغيير لا يتم إلا عبر القنوات الشرعية، أما ذوو البشرة البيضاء من الليبراليين الذين يقدمون الشكاوى ويتظاهرون ويعلنون عن آرائهم بصراحة فلم يفعلوا شيئًا ولم يحققوا أي شيء ورأوا فيما يحدث حماقة تبدد قواهم وقالوا لماكس: إن قنبلتك هذه لا تستطيع تحطيم قطعة من الرخام فلماذا تخاطر بحياتك؟

«الشجاعة والتحدي يتطلبان قدرًا من الجنون ... تلك هي حكمة الحياة.»

حاولت أن أفهم شيئًا عن الجنون وعن الله وتساءلت: لماذا ينبغي على الشجاع دائمًا أن ينتهي به الأمر إلى الجنون؟

هرب البعض من البلاد وهجر البعض الآخر منظماتهم وخلاياهم وتم القبض على آخرين، رفض الكثيرون منهم الحديث تحت ضغط التعذيب والاستجوابات حتى تدهورت صحتهم، لكن قليلين هم الذين تحدثوا وقالوا كل شيء.

حكموا على ماكس بخمس سنوات، وبعد خمسة عشر شهرًا من الضرب والتعذيب تحدث إليهم بما يريدون، فاتهمه الزملاء بأنه مخبر خاصة بعد أن أخبرهم عن سولي وإيف كنج والرجل الذي اعتقلوه معه وعن وليام زابا وآخرين ممن عاشوا معنا وعملوا معنا سنوات طويلة، ولكن عن أي شيء أخبرهم؟ وكيف تمت المواجهة بينه وبينهم؟

تلك أسئلة لا حيلة للإجابة عليها!

إنه ميت الآن ولم يكن موته من أجل الناس فقط ... لقد فقد احترامه لذاته واتهموه بالخيانة ... لقد خاطر بكل شيء وفقد كل شيء ... لقد قدَّم حياته ثمنًا وإلقاء نفسه في قاع البحر كان هو النهاية.

الفصل الرابع

إن قضاء وقت طويل مع جدتي العجوز لا يفيد، فذاكرتها ضعيفة ولا فرق أن يقضي المرء معها نصف ساعة أو ساعتين، لكن المهم أن تراه فقط، أما التعرف على وجهه فلا يحدث سريعًا، وإنما من خلال فتور الماضي وذهول الحاضر.

صنعت فنجانًا من القهوة لمغالبة النوم ومضيت بالسيارة عبر الضواحي قاصدة جدتي أثناء فترة الراحة بين حفلة سينمائية نهارية وأخرى، فكان الأولاد متزاحمين عند مدخل السينما يدفع بعضهم البعض في هزل، ويتناولون الآيس كريم في الشمس، وأمام زاوية من التقاطع الرئيسي للشارع كانت عائلة بيضاء فقيرة تبيع غزل البنات للعابرين بسياراتهم، وفي طريقي مررت بملاعب التنس وملاعب البولينج الخضراء، حيث يلعب بعض الناس ويستمتع البعض الآخر بالمشاهدة، وكانت صناديق البيرة الحمراء السميكة مفتوحة من كل جوانبها ولم تكن أيادي الأطفال تخلو من الحلوى.

بالنظر إلى وجوه الناس لم يكن ثمة شك في أنه يوم السبت بعد الظهر حيث بهجة نهاية الأسبوع.

إنه بيت قديم ذو سقف حديدي وطراز فيكتوري قديم لكنه قد تأثر بفعل الزمن فقاموا بتجديده مما أفقده جماله القديم كانت أبواب المدخل من الصلب والزجاج والضوء غير المباشر يظلل النباتات الاستوائية، وفي الطابق الأول كانت الأشياء المزخرفة الموروثة من أغنياء أوروبا منذ سبعين عامًا ونافذة من الزجاج الملون مرسوم عليها أوراق الزهرة ثم ألوان قوس قزح التي تضفي جمالًا على بعض الأشكال الفنية.

أشعر دائمًا بشعور إنساني تجاه المكان لا أحسه أمام أي بناء حديث لكن جدتي حين ذهبت هناك لأول مرة وكانت ما تزال قادرة على الاعتناء بنفسها وبالمكان كانت تشكو قائلة: إنه مكان قبيح ومن الطراز القديم.

إن جدتي تحب البلاستيك والزهور الصناعية والحرير الصناعي والرخام الصناعي والجلود الزائفة.

إن المرء داخل المكان يفقد إحساسه بالأيام ... نفس الهواء الدافئ والإضاءة الشاحبة والمشروبات الروحية ونفس الإحساس الغريب وعدم القدرة على معرفة إذا ما كان الوقت ربيعًا أم شتاءً، وعند العبور من بوابات الحراسة المفتوحة على اتساعها يستطيع الواحد منا أن يسمع وقع أقدام ميتة لبعض المرضى وكبار السن الذين يغادرون أسرتهم بعض الوقت ... إنها مصحة للمدمنين لبعض المرضى وكبار السن ومرضى السكر الذين لا أمل في علاجهم وينتظرون الموت بين وقت وآخر ... سيدات عجائز بشعر أبيض قصير يبدو وجه إحداهن كوجه سكير طائش وكأنها عاهرة فقدت جاذبيتها، وأخرى ذات بطن كبير كانت تمد قدميها فوق المقعد كالضفدعة الميتة الغارقة في مياه البِركة لم أستطع أبدًا معرفة ما حدث لها.

خارج حجرة جدتي الصغيرة كانت باقة الورد داخل الفازة على الأرض تحتوي على زهرة شقائق النعمان والأعشاب ذات الزهر الأحمر وبعض زهور اللبن الثلجية كالتي أرسلها لي جراهام.

فتحت الباب بهدوء وتسمرت في مكاني لحظة أبصرت خلالها جدتي جالسة فوق المقعد بشعرها القصير المجعد كما هو لكنه — هذه المرة — كان مصبوغًا بلون خفيف ومربوط بعقدة صغيرة إلى الوراء، وكان أحمر الشفاه واضحًا فوق شفتيها ... كانوا يغيرون ملابسها كل يوم ويساعدونها في ارتداء عقدها اللؤلؤي وقرطها الكبير.

كان الضوء القادم من خلفي قد ساعدني في رؤية عينيها المفتوحتين ووجهها الذي ارتسمت عليه علامات الخوف.

قالت بفزع: من القادم؟

أجبت: أنت تمزحين بالتأكيد ... إنها حفيدتك إليزابيث.

دخلت الممرضة ووقفت بيننا فقلت لها: ابتعدي قليلًا حتى تراني بوضوح. ثم اقتربت منها حيث الضوء القادم من النافذة وقمت بتقبيلها وأنا أقول: ها قد جئت فلم أشأ أن يفوتني عيد ميلادك.

استجابت لقبلتي ثم استدارت للخلف بسرعة وخوف، وعندئذٍ قالت وهي تنظر نحوي: إليزابيث ... حبيبتي إليزابيث ... أليس كذلك؟

ضحكت الممرضة الأفريكانية بشدة لكن جدتي لم تلحظ شيئًا وراحت تقترب مني وتقبلني مرة أخرى، ثم مدت يدها إلى فمها وقالت بغضب: ما دامت إليزابيث هنا فلماذا لا أشعر بأسناني؟ ... أين أسناني؟

قالت الممرضة: إن لثة أسنانك كانت تؤلمك هذا الصباح يا جدتي ولم ترغبي في تناول الدواء ... ألا تتذكرين؟ وعلى أية حال ها هي أسنانك ولكن يجب أولًا أن تتناولي الدواء.

– عن أي شيء تتحدثين؟ ... هاتي أسناني.

اختطفت جدتي أسنانها من يد المرأة وفتحت فمها لكنها لم تعرف مكان الجزء العلوي والسفلي.

شعرت الممرضة براحة كبيرة لوجود شخص آخر غير هذه السيدة العجوز تستطيع أن تتبادل معه الحديث، فقالت لي: إنها دائمًا تخاف كلما اقترب شخص ما من الباب ولست أدري لماذا تخاف إلى هذا الحد؟! إصابتها بالذبحة الصدرية الأخيرة ... إنها تعتقد دائمًا أن شخصًا ما سوف يأتي ويأخذها.

تحوَّلت عني وقالت لجدتي برقة: لن يؤذيك أحد يا سيدتي، ولا أحد يستطيع إيذاءك ... أليس كذلك؟

رفعت العجوز حاجبيها العاريين من الشعر وتحسست أسنانها الكبيرة المستعارة حين سألتني: هل ما زال زوجك يقيم معك أم أنه تركك مرة أخرى؟ وماذا عن بوبو ذلك الولد الجميل؟

كنت قد أخبرتها في زيارة سابقة عن طلاقي من ماكس لكنها لا تتذكر، وإذا قلت لها الآن إنه مات فسوف تنسى أيضًا، ولذلك أجبتها قائلة: لقد رأيت بوبو في الصباح وهو يتمنى لك عيد ميلاد سعيد.

قالت وكررت القول مرارًا: عيد ميلادي؟!

ثم استطردت: كم عمري الآن؟

قلت لها: أنت في السابعة والثمانين على ما أعتقد، لكنني لست متأكدة.

حاولت أن تتصرف كفتاة صغيرة لكنها لم تستطع إخفاء خجلها من ذلك التصرف، فراحت تهمس قائلة: شيء فظيع! ... إنه عمر طويل ولم أكن أعرف ذلك كما أنني لا أعرف أي شيء.

تحسست يديها فسرى النبض في كل جسدها وأبصرت الطلاء الأحمر فوق أظافرها كما اعتادت دائمًا أن تفعل، وذلك العقد اللؤلؤي حول رقبتها، والذي يبدو كأنه صنع خصوصًا لأجلها ثم سألتها: هل رأيت الزهور التي أرسلتها لك؟

تدخَّلت المرضة قائلة: لقد رتبت الزهور بطريقة جميلة لكنها لم تشأ أن تضعها بجانبها في الحجرة.

– لماذا؟ ... لماذا لا تريدين زهورك هنا؟

بدا وجه السيدة العجوز خاليًا من أي معنى، فأضفت: هل رائحة الزهور قوية جدًّا أم أنك لا تحبين تلك الرائحة؟ إنني أخشى ألا يكون هذا الوقت من العام مناسبًا للزهور!

لقد اعتادت الحديث عن عشقها للزهور رغم اهتمامها القليل بالأشياء الطبيعية.

قالت المرضة: نعم، فهي لم تحتمل الرائحة القوية للزهور ولم ترغب في إبقائها بالداخل.

ظلت جدتي تنظر نحوي ونحو المرضة ثم سألتني وهي تشير إلى المرضة: من تكون هذه؟

كان وجهها يوحي بالاتهام حين ابتسمت المرضة وقالت: آه يا جدتي ... إنني جروبلر.

لكن جدتي لم تفهم وارتعش وجهها وهي تكرر بنفاد صبر: من هي؟ وماذا تفعل هنا؟

أخبرتها أنها الأخت جروبلر التي تعتني بها، فهزت رأسها راضية وقالت: هل هي مناسبة لي؟

أجبت: نعم بالطبع ... إنها مناسبة.

بدأت المرضة تغني لحنًا رتيبًا: إنني أرتب سريرك وأقوم بحمامك ... أنا التي تمشط لك شعرك وتصنع لك الكاكاو.

بدت جدتي وكأنها لا تسمع شيئًا أو تفهم شيئًا مرة أخرى، وكانت تجاويف يدها تنتفض وكذا مفاصل أصابعها المدهونة بالكريم.

كان والد جدتي يعمل مهندسًا مع رودس وبيت، ولقد اعتادت طوال حياتها أن تعيش على الفوائد دون أن توفر شيئًا كما قالت أمي ذات يوم، ثم أنفقت آخر ما تملك من رأس مال على نفقات شيخوختها، وأستطيع أن أتذكر الآن أن جدي من مي لم يترك أي شيء لأولاده وفي نفس الوقت الذي تزوجت فيه أمي من شاب مفلس تزوجت جدتي أيضًا مرة ثانية من رجل كبر قليلًا من ابنتها أنفقت معه جزءًا كبيرًا من رأس المال إلى جانب إقراضها المال لابنتها من حين لآخر، ولم يحدث أن شاركت أبي وأمي اعتراضهما على الطريقة التي نعيش بها أنا وماكس والسؤال عن السبب في فشل ماكس كزوج، لكنها كانت تقول بأنه ولد مبتهج وعنيد ومغامر جذاب.

من دواعي سرور أبي وأمي أن أتزوج من عائلة فان دن ساندت، لكنني أفسدت ذلك السرور عندما أصبحت حاملًا قبل الزواج، حتى إن الناس في مدينتنا الصغيرة كانوا يقولون: لقد تزوجها رغمًا عنه.

وكانوا يلقبونه في المدينة بابن الثروة، فهل سيستريح أبي أمي حين أخبرهما بوفاته؟ وهل من الصعب قول ذلك؟

لقد كانوا يتوقعون شيئًا من ابن الثروة لم يحصلوا عليه، فهل كنت أنا — بطريقة ما — أتوقع منه شيئًا لم يكنه؟

كنت في السابعة عشرة من عمري حين قابلت ماكس ذات صيف أثناء مساعدة أبي في دكانه أيام الكريسماس، حيث مختلف البضائع والأطباق والأكواب الصغيرة الملونة ... طائر الوقواق الرخيص وساعات الحائط واليد ... فازات حمراء وبلابل مطلية بماء الذهب ... أقلام يابانية مزركشة ونازعات سدادات ألمانية على هيئة رءوس كلاب وأحد الأركان الخاصة بالتماثيل الصغيرة لراقص الباليه.

كانت الفتيات تشترين هذه الأشياء بما حصلن عليه من عملهن في محلات أخرى تبيع نفس الأشياء تقريبًا، وكان الرجال السود يترددون كثيرًا عند اختيار ساعة، فعرفت فيما بعد أن تلك الساعات لا تعمل بانتظام، وأن كل شيء زائف ورديء، واكتشفت يومها أن ماكس يعرف كل شيء من خلال البيت الذي يعيش فيه ومن خلال رواد البيت المحيطين به ورفاهيتهم في الحياة التي قاتل من أجلها آباؤنا وأجدادنا في حربين وقتلوا بسببها كثيرًا من الرجال السود في حروب أهلية ... اكتشف ماكس كل شيء، ولذلك توقعت منه شيئًا وربما أشياء كثيرة.

فكرت قائلة: بعد وفاة جدتي سيأخذ بوبو سلسلة صيد أبيها الذهبية التي أعطاها له بيت.

مضت أول خمس دقائق معها، وكالعادة لم أجد ما أقوله بالتطلع في فراغات وجهها العميق، تذكرت متعتها القديمة حين كانت تجوب الشوارع والطرقات والمدن، فوصفت لها رحلة الشراء التي قمت بها في الصباح، وقلت لها: كنت أبحث عن شيء ما أرتديه في المساء يكون خفيفًا وبأكمام لأن الجو — كما تعرفين — سيكون دافئًا في الأيام القليلة القادمة.

انتبهت وقالت: ما هي الموضة هذا العام؟ ... هل هو اللون الأسود؟

– لا ... إنني أحب اللون الأبيض.

مالت للأمام بثقة وقالت: إن اللون الأبيض لا يناسب الوجه.

– لكن الأبيض المائل للصفرة يبدو رقيقًا وبسيطًا.

– لكنه يحتاج لغسيل دائم يا حبيبتي ولا تستطيعين ارتداءه سوى مرة واحدة فقط.

– انتقلت من محل إلى آخر وكانت جميعها مزدحمة فعرفت أنه لا يجب شراء الملابس في أيام السبت وعندئذٍ توجهت إلى الفولا لتناول القهوة ... هل تتذكرين ذلك المكان الذي كنت تشربين فيه القهوة، وذلك اليوم الذي اصطحبني فيه بوبو لتناول الغداء حين سرق الأرغفة من المائدة المجاورة؟

ابتسمت ببطء شديد حتى تشقق فمها المتدلي وارتسمت الابتسامة فوق وجهها القاحل ثم ضحكنا معًا، فاستعادت ذاكرتها وراحت تردد كلمات بوبو: ساعدي نفسك يا جدتي ... ساعدي نفسك يا ...

قاطعتها الممرضة قائلة: أنت تستطيعين تذكر كل شيء عندما تريدين وتتحدثين جيدًا عندما تأتي حفيدتك، أما حين نكون وحدنا فإنك تصبحين كسولة.

ثم تطلعت نحوي وقالت: انظري كم هي مليئة بالحياة.

حركت السيدة العجوز ذراعَيها الكبيرين، وكان وجهها يوحي بمعانٍ كثيرة وحين تحدثت معها ظلت ترمقني بنظرات عينيها التي فيها من الحيرة قدر ما فيها من التسامح ... واصلت حديثي لكنها تجاهلتني لأنني في الحقيقة لم أكن أقول شيئًا، وفجأة سمعتها تقول: ماذا حدث؟

لم يكن ثمة ما يقال فهذا النوع من الأسئلة لا حيلة في الإجابة عليه، وليس من اليسير إخبارها بأنها ستموت ... لقد ورثت جدتي كل ما يجعل الحياة هانئة، ورغم ذلك فلا شيء يحول بينها وبين الموت.

سألت أيضًا: ماذا سأفعل إذا لم أخرج الآن؟

أجبت: تستطيعين الخروج في أي وقت، وقد أحضر ذات يوم بعد الظهر وأصطحبك أنت والممرضة جروبلر إلى السينما.

– كيف أتصرف عندئذٍ؟ وهل بمقدوري أن أفهم؟

كانت ابتسامتي بلا معنًى وأنا أقول لها: فلتبقي هنا في هدوء.

كررت السؤال: ولكن أخبريني بما حدث ... ماذا حدث يا إليزابيث؟

قلت: لا شيء على الإطلاق ... إنه التقدم في العمر فقط، وهذا شيء طبيعي وعادي جدًّا، خاصة وأنك في السادسة أو السابعة والثمانين، وهذا عمر كبير يا جدتي.

انتهت الساعة التي قررت أن أقضيها معها، فقلت لها وداعًا بابتسامة مشرقة ووعدتها بالعودة مرة أخرى في الأسبوع القادم رغم أنها لن تعرف الفرق إذا ما امتنعت عن زيارتها لمدة شهر ظلت تكرر: إنه عمر كبير ... عمر كثير ... أنت تعلمينني.

خرجت من الباب وسرعان ما عادت إليَّ خطواتي السريعة العنيفة بعد أن تجاوزت هدوء الممرات ورحت أقود سيارتي عبر الجسر قاصدة بيتي، فلاحظت علامة السهم والرمح القديمة التي لم يعد لونها أحمر شاحبًا ... كانت بداية غروب الشمس وثمة أبنية بمحاذاة أعمدة التليفون المنتشرة على طول الطريق وعدد ليس قليلًا من الناس يحمل شرابه للخارج من أجل الاستمتاع بالضوء المنتشر في كل مكان ... الضوء الذي يحيط الوجوه كما تفعل ظلال الأشجار ... إنه يأتي من أحد الانفجارات البركانية في الجانب الآخر من العالم ومن ذرات الرمال المرتفعة نحو طبقات الجو العليا، ويعتقد بعض الناس أنه بسبب التجارب الذرية القادمة من نصف الكرة الأرضية الشمالي بسبب الكآبة والركود ... إنها منطقة ترقد فيها العناصر هادئة ولا تحمل أي تلوث.

الفصل الخامس

كنت أقوم بتقطيع البصل إلى شرائح لتجهيز وجبة من لحم الخنزير حين جاء جراهام في السادسة، فنهضت أفتح الباب والسكين في يدي المبللة.

كنت سأتناول عشائي بالخارج كما قررت هذا الصباح لكن رائحة يدي الكريهة حالت دون ذلك ... التقط جراهام جريدتي من فوق حصيرة الباب وأدركت من حركات فمه الطويل أنه فهم ثم قال وهو ينظر إلى الجريدة: لقد نجح الأمريكان أيضًا فأرسلوا رجلًا يمشي في الفضاء ... انظري.

لم أستطع الإمساك بالجريدة فأدرت رقبتي لمشاهدة صورة المخلوق الجنيني المعتم المتصل بعجلة مظلمة عن طريق شيء كالحبل السُّري وقلت: أتمنى لو أن صور الجريدة باللون الأبيض والأسود بدلًا من الألوان حيث تكون الرؤية أفضل ... إن الصورة هكذا تشبه أشياء بوبو الكوميدية.

أغلقت باب المطبخ ثم اختفيت داخل الحمام لأغسل يدي بينما دخل جراهام حجرة المعيشة وراح يقرأ عناوين الجريدة الفرعية وبعض مقتطفات من تقرير طويل بصوت عالٍ: «طلبوا منه كثيرًا أن يعود إلى سفينة الفضاء، لكنه بدا مستمتعًا خارجها ... الأمر المختصر بهجر الفروسية ... لا مزيد من الكعك المحلَّى ... قطع فطائر رقيقة وصغيرة من الطراز الجنوبي تتسبب في مشكلة غير ذات أهمية.»

أجبت ببعض التعليقات وأنا أداعب أظافري وأضحك، لكن الرائحة لم تفارق يدي فعدت إلى حجرة المعيشة وسكبت العطر فوق يدي حين كان جراهام جالسًا فوق مقعده المعتاد ولم يكن بمقدوري، وربما لم يكن ضروريًّا، أن أشرح له سبب اعتذاري عن العشاء بالخارج، خاصة وأن رائحة البصل لا تزال تطاردني كلما تحركت يدي نحو وجهي.

بادرني بالقول: لقد جئت سيرًا على الأقدام ولم أستغرق سوى خمس وعشرين دقيقة.

– لا أعتقد ذلك، فهناك منحدر على طول الطريق، وعلى أية حال فإنك لن تستطيع العودة بنفس الطريقة ... هل تتذكر ذلك اليوم في عيد الفصح عندما تعطلت سيارتي وعدت من عندك إلى منزلي سيرًا على الأقدام؟

– متى حدث ذلك؟ ... ولماذا لم أصطحبك في سيارتي؟

– كنت قد أعطيتها لرفيقك في المجلس القانوني العالمي، ألا تتذكر؟

– أوه ... نعم ... إنه «باتن» ... والآن سأحتسي شرابًا قبل أن يحل الظلام وأبدأ رحلتي الصعبة الطويلة.

– لا داعي للعجلة؛ إذ يمكنني أن أعود بك في سيارتي، سأستغرق وقتًا في ارتداء ملابسي.

ابتسم وقال: أوه ... شيء جميل.

نهض وتناول زجاجة الويسكي من خزانة الكئوس والأطباق، إنه يمدني بزجاجات الويسكي الذي لا أستطيع شراءه، ثم توجهت لإغلاق أبواب الشرفة، حيث غابت الشمس وأصبح الجو باردًا، وكانت صورة غروب الشمس الرومانتيكية ما تزال في إطارها فوق الحائط، فبدت الحجرة بلون أسمر فاتح.

قال: شيء رائع.

– لقد اعتدت على ذلك.

ظل ينظر متأملًا فلم أستطع إغلاق الأبواب حتى ينتهي من تأملاته وكأنني مرشدة في متحف حتى قال: ومع ذلك فإنني أحب الأبقار والعشاق حين يصعدون مرتفعات «فريدا جولد».

إنه يحتفظ برسومات شاجال في حجرة نومه كما تحتفظ النسوة بأعمال ماري لورنسين في حجرات نومهن، فلماذا لا يحدث ذلك في حجرة المعيشة؟ ... لا بد أنها رؤية خاصة أو طريقة حياة خاصة لا تناسب الإنسان العادي، وربما غير مسموح له بها، وأيًّا ما كان الأمر فإن جراهام لم يكن شغوفًا بشاجال أو مهتمًّا بأعماله حتى قدَّم له شخص غني هذه اللوحة المعلقة في حجرة النوم.

قلت: فلنفترض أنها وقعت!

قال بطريقة متسامحة كما يفعل معي أحيانًا: إذن فهي ليست جميلة.

اعترضت قائلة: إن الجمال شيء نسبي.

ابتسم لطريقة حديثنا هذه التي نمارسها أحيانًا وكان يطلق عليها محادثات التلاميذ.

– الحقيقة ليست هي الجمال.

– إنها ليست كذلك تمامًا.

أغلقت الأبواب، لكنني لم أستطع شد الستائر عن آخرها، فجلس جراهام حاملًا الكأس في يده بعد أن تحرك بمقعده في مواجهة المنظر.

كنت قد توقفت عن ملاحظة غروب الشمس إلا قليلًا، لكن اهتمامه جعلني أنتبه، فالمرء يعاود اهتمامه بسماع قطعة موسيقية لم يعد يسمعها حين يجد شخصًا يهتم بسماعها.

حدقت في الألوان كما كان يحدق وقلت: سيكون الأمر فظيعًا لو أنها سقطت.

– كيف تبدو لك؟

– لم أستطع رؤية العشاق أو آلات الكمان أو الأبقار.

هبط الظلام وبدا إشعاع أحد النجوم في السماء كأنه شظية من الزجاج. وكعادته دائمًا حين لا يناسبه كلامي قال: لقد أصبت.

هكذا شأن الناس الذين يعرفون بعضهم البعض كما أعرف جراهام ويعرفني، حيث يستغرق الحديث وقتًا طويلًا دون اعتبار لأهمية الحديث أو نوعيته، فالأمر لا يختلف إذا كان متعلقًا بالشئون السياسية أو بتبادل الحكايات عن الأصدقاء أو التخطيط لقضاء إجازة، لكن المهم هو التواجد وإعادة تقسيم الأدوار التي اختار أحدهما أن يقدمها للآخر الذي يستنبطها بدوره لإظهار الوفاء، لكنني امرأة ذكية وملعونة لا يملك أدوات التعامل معها؛ إذ إن العلاقة مع امرأة من نوعي تعني الموافقة ضمنًا ليس فقط على المساواة في الذكاء، وإنما أيضًا على الإحساس العام المعاصر ... إنه غالبًا ما ينظر في الاتجاه المعاكس كلما أمسكت بزمام المناقشة بطريقة أفضل منه، وفي العام الماضي بأوروبا تناقشنا حول الرسم والمباني التي شاهدناها معًا كما نفعل دائمًا على مائدة العشاء في منزله أو في شقتي حين نتحدث في الشئون السياسية، وكان يتملقني بينما أسعى أنا لشد انتباهه ناحيتي وبعد أن أصابنا الارتباك وبدلًا من قوله المعتاد: «لقد أصبت» قال هذه المرة: كيف ترين علاقتنا؟

لم أعرف ما أقوله، لكن سؤاله كان هادئًا ومجردًا وليس من نوع الأسئلة التي يقوم فيها المحامي باستجواب الشاهد، ثم فشل كلانا في قدرته على التحكم ... واصلنا حديثنا ولكن دون الاقتراب من تشخيص حالتنا الحقيقية التي سيطر عليها الظلام.

قلت: أجد صعوبة في التحديد ... أعني ... كيف ... ماذا بوسعي أن أقول؟ ... هذا هو عصرنا ... أليس كذلك؟

كان يصغي بجدية وتعاطف وأنا أستطرد: كنت أقود سيارتي اليوم صباحًا على سبيل المثال عبر الشجيرات المتناثرة، وكانت شمس الصباح الشتائية وتسع سنوات من عمري وعمر ماكس … ذلك الصباح الذي كانت فيه لحياتنا تطلعات مختلفة للمستقبل تشبه دوي الطائرات البعيدة في السماء التي كنت أسمعها من معسكر تدريب القوات الجوية المجاور لبيتي أثناء الحرب … نفس الصباح الذي عشت فيه هنا وكان ماكس في السجن ولم أكن أرملة … كنا نكبر ونلتحق بالوظيفة ونتزوج ونصلي للمسيح الأشقر في كنيسة البيض ونقدم ملابسنا القديمة للمربية.

لقد سألتني جدتي العجوز قائلة: ماذا حدث؟

وأثناء قيادتي للسيارة عبر الأشجار الصغيرة قاصدة بوبو تذكرت ماكس وإنصاته للبط الذي لم يستطع أن يفهم منه أي شيء.

كان رجل ما يسير بالقرب في الخلاء، فتوقفت وقلت لجراهام: ماذا سوف يقولون عنه في التاريخ بالله عليك؟

قال: لقد قرأت كتابًا يشير إلى تاريخنا على أنه العالم البرجوازي الزائل … كيف ترين ذلك؟

شعرت بشيء يتحسس جلدي مثلما تفعل الرياح عند اصطدامها بالماء ثم ضحكت … إن بعض الكلمات أحيانًا تساعد في تعميق هذا الشعور.

– احتضار جميل … لكنه تعريف سياسي ليس جيدًا.

– نعم، لكن الكاتب الألماني الشرقي يعني ما هو أكثر من ذلك … إنه يعني الفنون والاعتقادات الدينية والتكنولوجيا والاكتشافات العلمية وممارسة الحب وكل شيء.

– باستثناء العالم الشيوعي.

– لا … ليس حقيقيًّا فإنه جزء من الظاهرة التاريخية كلها.

رغبت في انصرافه فقدمت له كأسًا أخرى وقلت: هل كنت تعمل بعد الظهر أم أنك استسلمت للنوم؟

ابتسم ابتسامة جوفاء كتلك التي ترتسم فوق فم الراهب حين يختلق بعض الحكايات عن الحياة خارج الدير، وكنت أعرف أنه لم ينم بعد الظهر رغم المجهود الذي بذله في ممارسة الحب معي ليلة أمس، وإنما كان يكتب في حجرته ويسجل كلامًا بصوته على الدكتافون كذلك الذي كنت أسمعه وكأنه شخص يقوم بالصلاة.

لاحظت بالقرب من البيت الذي تقيم فيه جدتي علامة السهم والرمح المنتشرة فوق حائط الجسر، لكنني لست مندهشة لأن نفس العلامة موجودة في أرجاء المدينة أيضًا، ولقد

أخبرني جراهام في الأسبوع الماضي أنهم حكموا على فتاة بيضاء شابة بثمانية عشر شهرًا لأنها رسمت هذه العلامة وهذا الرمز، لكنهم يحكمون على الرجال والنساء السود في كيب بثلاث سنوات عقابًا على نفس الشيء.

قلت: أتعتقد أنه من المناسب استخدام هذا الرمز؟ ومن هو صاحب الفكرة؟

إنه الرمز الخاص بالمقاومة الذي ظهر لأول مرة في إحدى المحاكمات السياسية منذ زمن ليس ببعيد، ولديَّ اعتقاد أنهم يرغبون في إيجاد رمز آخر بدلًا من ذلك الذي اخترعه أحد المخبرين.

ضحك وقال: لا أعتقد أن المخترع كانت لديه أية دوافع كما أن وكالات الإعلان التي تصوغ الشعار ليست لديها أية دوافع ولا تؤمن بما تفعل ... أليس كذلك؟

– أعتقد هذا، لكنه أمر غريب يثير التساؤل، وإلا فلماذا يكون الشعار هكذا؟

التزمنا الصمت لحظة فكر فيها كلانا بماكس، ولكن لم يكن ثمة ما يقال عن ماكس غير أن فكرة موته أو حياته ظلت تلاحقنا مثلما يلامس الماء قدم المرء عند شاطئ مظلم في الليل.

سألني جراهام: هل وصلت الزهور إلى جدتك؟

أخبرته كيف أنها صرخت عندما رأت الزهور عند مدخل الباب، ولم تشأ أن تضعها بالداخل، فقال: شيء طبيعي أن تخاف من الموت.

ربما بالإضافة إلى أنها تكره الأشياء الطبيعية ولا تتحمل الطقس البارد أو رؤية الشعر الرمادي، خاصة بعد أن أصابتها الشيخوخة منذ سنتين أو ثلاث سنوات مضت، وربما قبل ذلك، حيث اعتادت منذ خمسة عشر عامًا أن تقضي الشتاء هنا وترحل إلى إنجلترا في الصيف، لكنها الآن لا تستطيع عمل ذلك.

نهض فجأة وهو يحتويني بنظراته وكانت الدهشة تعتريه وربما الضيق، ثم قال لإنهاء المحادثة: أيمكنك الآن اصطحابي بالسيارة؟

لم يفهم جراهام أن المرء حين يوشك على الموت فإنه يريد إحساسًا بالاكتفاء كذلك الذي يحدث عند تناول الطعام.

ذهبت معه بسيارتي إلى منزله، وعند مدخل البوابة طبق من البرونز اللامع مكتوب عليه اسمه، وفوق الباب الخشبي الأمامي يوجد فانوس حديدي.

نزل من السيارة فسارعت بالسؤال: هل لك أن تتناول العشاء معي غدًا؟

كنا في حالة من اللامبالاة وعدم القدرة على التفكير، فعدت مسرعة وكأنني خفاش خارج من الجحيم، وقد شعرت بمهارة ممتعة في القيادة عند الملفات كما يحدث لي عندما أشرب شرابًا قويًّا على معدة خاوية.

قلت لنفسي: يجب التخلص من رائحة البصل وتناول حمام قبل السابعة والنصف.

ثم تراجعت قائلة: أو قبل الثامنة، وإذن فهناك متسع من الوقت.

كان «لوقا فوكاس» هو القادم ... لقد اتصل بي في المعمل يوم الخميس، وقال: كيف الأحوال يا رجل؟ هل بمقدوري أن أزورك يوم السبت، خاصة وأنني قريب من هنا؟ هل يناسبك هذا التوقيت؟ ... إنني موجود لمدة قصيرة لكنني سأعود كثيرًا.

إننا لا نستخدم أسماءنا في المحادثات التليفونية لكن لوقا اعتاد على مناداتي بكلمة «رجل» كما ينادي الزنوج بعضهم البعض.

– حسنًا، سوف أحضر.

– في حوالي السابعة والنصف.

لست أدري لماذا وافقت على زيارته، وأتمنى ألا يضعني في قائمة زياراته لأنني أريد أن أكون وحيدة ... ربما أكون قد افتقدت وجوههم السوداء بعد أن نسيت مذابح المنزل الخلفي وخيبات الأمل وسوء التفاهم، لكننا عشنا أوقاتًا طيبة كالتي كان يجلس فيها «وليام زابا» مع آخرين يوم الأحد تحت شجرة المشمش طوال اليوم بينما يأتي «سبيرز» ويتحدث معي وأنا أجهز لهم الطعام.

عادت إليَّ ذكرى تلك الأيام وكأنني لم أعشها، وشعرت كما لو أنني استيقظت فجأة لأجد نفسي في مكان غريب، ورغم ذلك فلقد عرفت فيما بعد أن كل الأشياء لم تكن جيدة، وأن الصداقة لم تكن من أجل الصداقة فقط كما يحدث بين البيض.

همست لنفسي: ينبغي أن أتفرغ لعملي وللعلاقة التي تربطني بجراهام، ويجب أن أعترف بحظي لأنني لا أمتلك القدرة على المخاطرة بالمضي في نفس الطريق الذي سلكه ماكس.

لم يكن «لوقا» أحد أفراد المجموعة القديمة، لكن رفيقه «ريبا» يعرف ماكس، وقد حضر كلاهما عندي ذات مرة ... إنهما ينتميان إلى هذا المكان، لكنهما يعيشان في باسوتولاند بعد أن حصلا على حق المواطنة بطريقة ما من الإدارة البريطانية، وكان ريبا يعمل مقاولًا للنقل والمباني ولديه شاحنة قديمة ينقل بها مواد البناء بين ماسيرو وجوهانسبرج بدون قيود ويستخدمها في نقل السياسيين إلى الاتجاه الآخر للمشاركة في المعارك الانتخابية حتى حدود بيشوانا لاند.

ذات ليلة منذ خمسة عشر شهرًا جاء ريبا إلى شقتي في منتصف الليل حين تعطلت شاحنته، وكان برفقته شابان ... لم يكن يملك المال الكافي لإصلاح الشاحنة ولم أكن أعرفه تمامًا، فلقد قابلته مرة واحدة فقط مع ماكس، لكنني أعطيته الثمانية الجنيهات الوحيدة التي أمتلكها، وانتابني الخوف من فكرة أن يكون الأمر كله مجرد فخ للبوليس، وخفت أكثر ألا يكون كذلك، ثم قلت لنفسي: كيف لشخص مثلي ألا يساعد الأفارقة؟!

كان أحد رفيقيه شابًّا بدينًا ذا وجه ناعم أسود يوحي بأنه من أفريقيا الغربية، وله عينان كبيرتان تشعان فوق جلده الأسود وتشبه العيون الملونة لشعب غرب إيطاليا القديمة ... إنه لوقا.

أما ريبا الصغير فقد كانت رأسه مثبتة بين أكتافه إلى الوراء مثل الرجل الأحدب، وكان فكه كبيرًا وفمه مفتوحًا بانتباه وضحكته هادئة تذكرني دائمًا بفرس النهر حين يفتح فمه كي تسارع الطيور بتنظيف أسنانه.

كان كلاهما جذابًا، لكنني لم أستطع أن أثق فيهما تمامًا، ولم أحلم أبدًا أن يرد لي ريبا النقود، غير أنني تلقيت خطابًا مسجلًّا عبر فيه عن شكره العميق، ووقَّعه في النهاية قائلًا: «رفيقك في النضال: ريبا شبيز».

منذ تلك الليلة راح لوقا يعاود الظهور من وقت لآخر ويشرح لي تفسيراته بين زيارة وأخرى، ثم يحدثني عن ريبا وسر اختفائه قائلًا: إنه مشغول جدًّا بأعماله، وربما حر جوهانسبرج الشديد هو الذي يمنعه.

ماذا يحدث؟ ... ليس من شأني على أية حال، فكلاهما من رجال المنظمة السياسية الأفريقية، لكن الحكومة العنصرية البيضاء لا تفرق بين تلك المنظمة وبين رجال المؤتمر الوطني الأفريقي الذين كنا نساندهم أنا وماكس ومعظم اليساريين البيض من الليبراليين لوقوفهم ضد العنصرية وعدم رفضهم لنا ومناقشاتنا معهم ... إن رجال كلا التنظيمين كانوا معرضين للسجن وحقيقة انتماء البعض إلى كلا المنظمتين لم يعد مثار شكوك.

كنت أكتفي بعمل الوجبات السريعة في المطبخ، والتي لا تتطلب مهارة كبيرة، مثل عمل البيض المقلي، ولا أطهو وجبة جيدة إلا في وجود بوبو، خاصة وأن جراهام كان يدعوني على العشاء بأحد المطاعم، أو يكلف طباخه بعمل وجبة نتناولها في منزله، لكن لوقا فوكاس كان جائعًا حين جاء مع ريبا في تلك الليلة، ولم يكن أمامه سوى تناول الطعام البارد الذي أحتفظ به في الثلاجة أحيانًا، وهو عبارة عن لحم الخنزير بشرائح البصل، والذي لا يعد طعامًا جيدًا، لكنني أستمتع بالحصول على كل شيء جاهز.

فتحت زجاجة النبيذ الإسباني الأحمر التي تركها جراهام ليوم ما قد نتناول فيه شيئًا يستدعي شرابها، فالنبيذ شيء ضروري بالنسبة له مع الطعام الجيد وممارسة الحب، حيث إنه لا يستمتع بأحدهما منفصلًا عن الآخر ... تناولت كأسًا وشربته في الحمام، فبدا الأمر جميلًا وأنا أقرأ الصحف وذلك التقرير الذي قرأه جراهام عن الفضاء، غير أنهم لم يذكروا شيئًا عن ماكس في الطبعة الأخيرة.

كنت أرتدي ملابسي قبل مجيء لوقا بوقت كافٍ دون أن أدري شيئًا عما سأفعله رغم وجود أشياء كثيرة ينبغي أن أقوم بها، لكن وقتًا يثير الارتباك كهذا لا يمكن عمل شيء فيه ... حاولت استكمال الخطاب الذي بدأت في كتابته لكنني لم أستطع لأن روح الكتابة قد اختلفت، فأدرت التسجيل وصببت لنفسي كأسًا آخر من النبيذ ... جلست وشعرت كما لو أنني فوق خشبة أحد المسارح الخالية من الجمهور، ثم أمسكت بكتاب كنت أقرأ منه في الصباح وأنا مستلقية فوق السرير وعند منتصف الصفحات كانت وفاة ماكس تتراءى لي فلا أفهم شيئًا، فألقيت بالكتاب جانبًا وعندئذٍ عدت إلى صوابي مرة أخرى.

كانت أصوات الناس في الخارج تتسلل إلى منزلي وصوت مذياع مزعج يتطرق إلى مسامعي مختلطًا بصوت أبواب السيارات وهي تنغلق بعنف، وكانت الأضواء منعكسة فوق مرتفعات فريدا جولد.

أبصرت أنبوبة صمغ فوق طفاية السجائر كنت قد استخدمتها منذ أيام قليلة في لصق نعل حذائي، فتذكرت رأس تميمة القرد الأفريقي المكسور الذي أحضرته لبوبو من ليفنجستون في طريق عودتي من أوروبا في العام الماضي، فتوجهت إلى حجرة النوم وقمت باللصق بعناية في محاولة لإعادتها إلى ما كانت عليه، غير أنها لم تصبح كذلك.

فكرت في شراء بعض الألبومات للاحتفاظ بصور بوبو الملقاة في دولاب الحمام داخل صندوق القبعات القديم، والتي ضاع معظمها مع صحفنا وأوراقنا الشخصية من جراء هجمات الشرطة المتكررة في كوخنا القديم والتي لم أستطع استردادها، وتحمست للفكرة وأنا أقول: صور بوبو في الألبوم مكتوب عليها التاريخ واسم المكان.

شعرت بالجوع فتناولت كأسًا أخرى من النبيذ، ثم سمعت طرقًا خفيفًا على الباب.

إن لوقا لا يدق الجرس.

الفصل السادس

إنه يدخل من المدخل الأمامي للمبنى مباشرة ولا يضايقه الحارس الجالس في نقطة المراقبة بالكشك الخشبي من أجل مراقبة الذين يتسللون إلى حجرة الخدم في السطح عن طريق السلالم الخلفية، كما أنه لا يخشى أن يراه أحد، وإذا ما قابل السيدة القائمة على العناية بالمكان فإنه يختلق لها حكاية مقبولة يفسر بها وجوده، وهكذا ينجو منها لكنه — بطريقة ما — لا يقابلها.

كان باستطاعة عدد قليل من الأفارقة أن يفعلوا مثله، أما الغالبية فلم يكن بمقدورهم التحرك خطوة واحدة دون عراقيل ومحظورات كالتي تواجههم في كل مكان، كما عرفت حين كان ماكس يعمل معهم.

وقف لوقا عند المدخل فأدركت حينئذٍ أنه لا يأتي لزيارتي بدون موعد يتفق معي بشأنه حين أسمع صوته على الطرف الآخر من التليفون، أو حينما أراه واقفا هكذا بابتسامته العريضة وجسده الكبير الذي يملأ ملابسه.

شعرت بسعادة لرؤيته، وكان من اليسير سماع هفهفات ملابسه ورؤية عضلاته المتحركة وهو يسارع بالدخول ... إنه أحد أولئك القوم الذين يتنفسون بحذر كالقطط ويتركون بصمات أصابعهم فوق الكوب نظرًا لدفء أجسادهم.

قلت: جميل أن أراك.

وضع يديه بسرعة فوق قمة ذراعي وتركهما ينزلقان إلى الكوع ثم ضغط عليَّ برقة ... وقفنا لحظة تبادلنا خلالها الابتسام بدلال، ثم قال: وجميل أيضًا أن أراك فلقد كدت أن أنسى شكلك ... هاي ... ماذا حدث؟ ... هل كان غيابي طويلًا؟

أبصر اللون الفاتح فوق قمة رأسي فقلت: لا شيء ... إنها الموضة التي تفعلها النساء عند الكوافير ويطلقن عليها اسم التقليم أو التخطيط.

وضع يديه فوق الأجزاء البارزة من أثدائي وكأنه يقول: إلى هناك، ثم توجهنا إلى حجرة المعيشة.

ظل يتحدث وهو يتجول بالحجرة دون أن يتوقف عن النظر إلى الأشياء ولمسها وكأنه يريد إحساسًا بالألفة أو شعورًا بأنه في بيته وقد أثارت العلامات والشارات انتباهه وراح يفكر في تأثيرها وهو يتذكر حياتي هناك مع ماكس، وكان طبيعيًّا ألا ينتبه لزهوري، فلقد كان لديه ما يريد قوله في الحال: لقد جئت يوم الثلاثاء ... لا ... لقد غادرنا يوم الثلاثاء متأخرًا ووصلنا صباح الأربعاء مبكرًا ثم تعطلت السيارة.

تناولت بيدي زجاجة البراندي وأمسكت بيدي الأخرى زجاجة النبيذ المفتوحة فقال: أوه ... أي شيء وليكن براندي.

لقد أصاب التلف سير المروحة والشاب الذي كنت معه.

– أليست الشاحنة معك؟ وكيف حال ريبا؟

– إنه في منزله هذه الأيام وأنا الذي يقوم بالتحرك؛ إذ إنه يعاني من المشاكل مع زوجته التي تتسبب في المتاعب دون إدراك منها، حتى إن الطبيب لم يستطع معرفة ما بها وفي حقيقة الأمر فقد طلب مني ريبا أن أسألك.

– حسنًا، لكنني لست طبيبة وإنما أعتقد أنها تعاني من ضعف في السمع.

– نعم، وهذا ما قاله الطبيب، لكنها ليست ذكية.

ضحكت، فاستطرد: وتعاني من قصور في الفهم والإدراك، ويمكن للمرء أن يفقد توازنه إذا فقد السمع تمامًا.

قلت: نعم ... أعرف.

أراد أن يجعلنا نضحك على المنطق الأفريقي فقال: إنها تقول إن لها أذنين فقط.

قدمت له كأسًا من البراندي ثم توجهت للمطبخ وأشعلت نار البوتاجاز بسرعة، وبعد أن وضعت اللحم فوق النار وضعت الصلصلة فوق السلاطة وقمت بخلطهما معًا دون أن أغسل يدي كما أفعل دائمًا حين لا يراني أحد.

كان يسمع الأصوات الصادرة مني في المطبخ ويضحك وعندما خرجت حاملة الصينية قلت في مواجهة ابتسامته العريضة: ما الأمر؟

قال: إن الفتيات ذوات البشرة البيضاء لا يبددن الوقت ويتمتعن بروح عملية فعالة، وذلك ما أحبه.

وضعت الخبز والسلاطة والزبدة فوق المائدة وقلت: إنني لا أفعل هكذا دائمًا وقيامي بعمل هذا يعد مجهودًا خاصًّا.

أجابني قائلًا: أوه ... أشكرك جدًّا.

ظل صامتًا يراقب دخولي حجرة المعيشة وخروجي منها حتى أبصر رأس القرد الأفريقي، فاكتسى وجهه بالفضول وسارع بالتقاطه، ثم قال في محاولة للتقرب مني ومن شئون حياتي: أنت تجدين ما يشغلك طوال الوقت، فها هي محاولة لتثبيت رأس القرد.

– إنه خاص بابني بوبو.

قال وهو يداعب الفراء بأحد أصابعه: شيء جميل لولد صغير.

– إن بوبو لم يعد صغيرًا وقد لا تناسبه الآن.

– لكنني أستطيع اللعب بشيء كهذا في مثل عمري الآن.

لم أكن أعرف إذا ما كان لطيفًا حقًّا أم أنه كان يفتعل المرح خلال استجابات سريعة لما يحيط به لأنه حين يكون يقظًا لما أقول فإن عينيه ترفرفان، وعندئذٍ أعرف أنه — بطريقة خاصة — يفكر في شيء آخر.

ابتسم ونظر لي نظرة إعجاب طفولي أثارت إعجابي ثم قال: أيمكنك الجلوس والاسترخاء قليلًا؟

كان حديثه في كثير من الأحيان قليلًا وموحيًا على طريقة الأفلام الأمريكية التي تأثر بمشاهدتها، وكان ذلك مناسبًا له تمامًا كما كان ملائمًا له ذلك الجاكت الصوفي الذي يرتديه.

تسربت إلى أنفي رائحة البصل الذي استوى مع الزبدة فوق النار بينما كنا نتبادل الحديث بمودة فوق أرض محايدة.

سألته عن الانتخابات في باسوتولاند ثم تطرق بنا الحديث عن وضع اللاجئين من جنوب أفريقيا وعندئذٍ بدأ يشكو من الأحكام المفروضة عليهم من قبل السلطات البريطانية التي أشار إليها قائلًا: أصدقاؤك الإنجليز.

قلت باحتجاج: أصدقائي؟ ... لماذا أصدقائي؟ ... رغم إشفاقي على أولئك البؤساء ومساعدتهم في التعامل مع اللاجئين السياسيين ومشاركتهم النضال.

قال: آه ... إنهم يمارسون لعبة جميلة مع حكومة جنوب أفريقيا فلا تقلقي.

قلت: خاصة شباب المنظمة الأفريقية السياسية.

ضحكنا بصوت عالٍ، فوجدها فرصة للانحراف بعيدًا عن الموضوع وخاصة فيما يتعلق بزياراته لجوهانسبرج.

كنت على يقين أن هناك سببًا وراء زيارته لي كما يحدث دائمًا رغم أنه عاد في المرة الأخيرة دون أن أعرف السبب؛ إذ إنه لم يستطع الإشارة إلى ما كان يريد ... إن ذلك الشاب لوقا ليس أحمق على أية حال.

بدأنا نتناول الطعام في حوالي العاشرة، وكان الجو شديد الحرارة والرطوبة ... تلك الحرارة التي لا يشعر بها المرء عندما يقوم شخص ما بخدمته من خلف الأبواب ... رغب لوقا في زجاجة من البيرة لكنني لا أحتفظ بها في منزلي، فراح يواصل شراب البراندي بينما أعددت لنفسي كأسًا من النبيذ الجيد.

أعلنت احتجاجي منذ سنوات قليلة مضت حين تصرفت بأنانية وجشع وبحثت عن المتعة مع جراهام، لكنني فكرت فيما قلته لماكس منذ زمن بعيد أثناء بدايتنا معًا: ماذا بوسع الإنسان أن يفعل إذا مات الشخص الذي يحبه وكيف يمكنه الاستمرار؟

أجاب ماكس عندئذٍ: بعد ساعات قليلة يشعر ذلك الإنسان بالعطش فيرغب في الشراب.

كان العشاء جيدًا ولذيذًا وبدا الأمر كأنه عيد، فقلت لصاحب الوجه الأسود الناعم والعينين الكبيرتين الجالس إلى جواري: هل عرفت من الجريدة أن زوجي مات؟

دق قلبي فجأة دقات سريعة ومتلاحقة ولم أعد أفكر في إخبار هذا الزائر بأي شيء، فقد كان الوقت متأخرًا ولم يكن ثمة ما يقال ... إن مثل هذه الزيارات بلا معنًى كالوقت الذي نستيقظ فيه من النوم ليلًا لنقرأ أو ندخن ثم نعود للنوم مرة أخرى.

كان فم لوقا مليئًا بالطعام فبدا خائفًا وهو يبصق الطعام ثم قال: يا للمسيح، لم يخبرني أحد، ولم أقرأ شيئًا في الجريدة ... متى حدث ذلك؟

شعرت بارتباك شديد وقلت: لقد تم طلاقي منذ زمن بعيد كما تعرف، وعاش بوبو معي منذ طفولته المبكرة.

– أوه ... ذلك الرفيق الذي كان معك في كيب تاون ... هل كان هو الشخص الذي تزوجتِه؟ ... لقد قرأت عن وفاته ولكنني ...

– نعم، لقد تلقيت البرقية هذا الصباح وكانت صلتنا مقطوعة منذ عام.

ظل يكرر مرة وراء الأخرى: يا إلهي الطيب ... لم أكن أعرف.

عدت لتناول الطعام لإجباره على مواصلة طعامه، لكنه ظل يحدق في وجهي فقلت: يا للجحيم، كان أمرًا كريهًا يا رجل.

– وماذا فعلت يا ليز؟

كنت أتناول طعامي فرحت أمضغ قطعة من اللحم وأغرف قليلًا من قطع البصل، وحين وضعت الشوكة في فمي تأكدت أنه كان يلاحظني، فتوقفت عن الأكل واعتدلت في

جلستي ثم نظرت إليه وقلت: لم أفعل شيئًا يا لوقا سوى الذهاب إلى المدرسة لإخبار ابني، وهذا كل ما في الأمر.

– وماذا عن الجنازة؟

– ستكون في كيب تاون.

– هل ستذهبين إلى هناك؟ ... لا شك أنك لن تذهبي.

ربما كان يفكر في جنازة إحدى العائلات الأفريقية بكل ما فيها من خصومات ونزاعات قبلية وبالحياة البائسة.

أجبت: لا ... لن أذهب.

قال: لكنه كان زوجك!

– نعم، أعرف ذلك.

أظهر كلانا تقديره للآخر بدون دهاء، ولا أستطيع أن أزعم أنني أعرف أي شيء عنه سوى ما أمكنني التقاطه من براءته ووجهه الممتلئ الجميل، غير أنه اعتبرني إنسانة غريبة بالمقارنة بنوع الحياة التي ينتمي إليها.

بدأنا في تناول الطعام مرة أخرى ببطء حين قال: لماذا فعل ذلك من وجهة نظرك؟ ... هل هي أسباب سياسية؟

كان لوقا يعرف ذلك الوقت الذي عمل فيه ماكس مخبرًا، فقلت: لو أنه كان رفيقًا لكم لما فعل ذلك بنفسه؛ لأن شخصًا آخر كان سيقتله بالسكين ويلقي به في الميناء.

قال: اهدئي يا ليز ... هل تعتقدين أنه لم يستطع التخلص من إحساسه بالذنب؟

– لا أعرف يا لوقا ... إنني حقيقة لا أعرف.

– لكنك تعرفينه وتعرفين أي نوع من الرجال هو رغم عدم رؤيتك له منذ مدة طويلة.

– إنه لا يعتقد أنه كان كذلك.

لم يشأ لوقا أن يخاطر بحديث سيئ عن الميت، فقلت بطريقة من يقدم العزاء لنفسه: يوجد بعض الناس ممن يقتلون أنفسهم لعدم قدرتهم على تحمل فكرة أنهم لن يعيشوا للأبد.

ابتسمت، وخشية أن يعتقد أنني أتحدث عن الحياة بعد الموت أضفت بسرعة: أعني أنهم لا يستطيعون الصبر على الوقت الذي يعيشون فيه مثل القديسين والشهداء الذين هم من نفس النوع.

لكنه قال: الفتى البائس.

وجدت نفسي وكأنني امرأة بيضاء أخرى تتحدث كثيرًا، فقدمت له نبيذًا مرة أخرى لكنه رفض قائلًا: لا ... سأكتفي بهذا.

كنا قد شربنا كثيرًا لكنني كنت في حالة جيدة رغم أنني لا أشرب أبدًا عندما أكون في حالة سيئة ... صببت لنفسي كأسًا أخرى وتناولنا مزيدًا من الطعام، وراح يحدثني عن مشروع ريبا ببناء ستة عقارات حول باسوتولاند من أجل حياة أفضل للأفارقة، حتى قال: وإذا وجد ريبا من يساعده فلن يتوقف وعندئذٍ يستطيع الحصول على الطوب والخشب بأسعار رخيصة.

– ولكن أي نوع من المنازل؟

– ستكون المنازل جيدة لأن ريبا يعرف ما يفعله ... هل تعرفين صديقه بازل كاتز؟ ... إنه الآن يقوم ببعض التصميمات ويفعل ما في وسعه هناك في محاولة منه لمساعدة ريبا لم أهتم كثيرًا وكان من اليسير أن أبدو متعاطفة، لكنني قلت: ألن تقوم جمعيات البناء بدورها؟

– لا بالطبع فهذه الجمعيات للأسف لا تفعل شيئًا من أجل المواطن الأسود ولذلك أشعر بالأسف تجاه ريبا الذي أعرف أنه ماهر جدًّا ويستطيع الحصول على الأسمنت والطوب والخشب بأسعار رخيصة، كما أن لديه الأيدي العاملة من أهل باسوتولاند، وهذا في حد ذاته شيء جيد.

– لا أعتقد أنه يملك الضمان الكافي.

– نعم هو كذلك، ولو أنه من البيض لاختلف الأمر.

استأنف حديثه عن العمل ربما بدون وعي وهو مائل بمقعده إلى الخلف حتى قال: ثلاثون ألف راند[1] بعائد ١٠٪ فتكون الفائدة حوالي ثلاثة آلاف ... هل تدركين ذلك؟

– وهل يوجد هناك من يستطيع شراء مثل هذه المنازل؟ وهل لديهم المال؟ ... أعني أنه مشروع غير اقتصادي بطريقة ما.

قال بطريقة رجل المدينة الذي يحتقر أهل القرية: ينبغي أن تشاهدي الماشية التي يمتلكونها وهؤلاء هم الذين يذهب إليهم ريبا ويجلس معهم ويشاركهم احتساء البيرة وتبادل الأحاديث ويخبرهم بحاجة الحكومة الأفريقية بعد الاستقلال لهذه المنازل من أجل

[1] Rand: وحدة العملة في جنوب أفريقيا. (المترجم)

الوزراء والناس في المدينة ... إنه يقابلهم ويتحدث إليهم ولا يذهب لأولئك البؤساء فوق الجبال.

تطرق الحديث عن سرڤو، وحينئذٍ أخبرني عن مباحثات ريبا مع الفلاحين فضحكت وتساءلت بيني وبين نفسي: إلى أي شيء يرمي؟ ومن أجل أي شيء جاء؟

لكنني نسيت تساؤلي بسرعة وقلت: وذلك ما تفعله أنت في جوهانسبرج فكلا كما يعمل على زيادة النقود من أجل بيوت الأغنياء.

نظر إلى قطعة الجبن التي تناولها لتوه فأزاحها بعيدًا بالسكين ثم نهض من فوق المائدة واستدار بعد أن وهبته الصراحة التي أرادها ... بدت بطنه مليئة من خلف قميصه الأبيض فرفعها بيده وراح يتنفس بعمق وهو يتقدم بصدره إلى الأمام وعندما بدأ يتحدث مرة أخرى قال بطريقة مختلفة: لا ... إنها ليست بيوت الأغنياء ... إنها ... إنها بيوت ريبا.

تحركت يداه بإشارة دائرية وحين تذكرت أنه كان يعمل بائعًا لملابس السيدات الداخلية في الضواحي سألته بعد أن وقفت في مواجهته وطويت ذراعي: كيف تعيش الآن يا لوقا؟

ثم أضفت: رغم أنني أعرف أنك لست من النوع الذي يحق للمرء أن يسأله مثل هذا السؤال.

ابتسم ابتسامة بريئة لم يستطع التراجع عنها، وقال بتردد: إنني مع ريبا كما تعرفين.

– لا ... لا أقصد ذلك فأنت مشغول جدًّا مع ريبا ولكن كيف تعيش؟ ... أليست لك عائلة في مكان ما؟

– إنني أسافر وحدي.

كان كلانا يعلم بوجود زوجة وأطفال لكنه خبير في توصيل ما قد يدعوه المرء بالأسف الجنسي وتبليغ اقتراحاته بوجوب ممارسة الحب، وأعتقد أنه لاقى قبولًا كبيرًا مع نوع النساء البيض اللاتي يعرفن أمثاله من الرجال السود.

لقد حاول معي من خلال أشياء أخرى وبطرق مختلفة، ولم أستطع أن أخبره بحبيبي الأسود الذي كان منذ سنوات مضت.

تحسس أذني ورقبتي بمقدمة أصابعه وليته كان يعرف جمال هذه الحركة، فإنني أحب — بشكل خاص — تلك الخطوط الوردية الشفافة في الجانب الداخلي من الأيادي السوداء، والتي تبدو وكأن الضوء يتخللها.

لفني بذراعيه ورحت بدوري ألتصق بخصره الدافئ القوي بعد أن تلامسنا برقة ضايقته بقولي: أظن أن الحزب الشيوعي يساندك.

وكما يفعل كل رجال المنظمة السياسية الأفريقية راح يتهم رجال المؤتمر الوطني الأفريقي بأن موسكو تقتادهم من أنوفهم، وكذلك بكين، ثم قال: نعم، هذا صحيح.

ضحكنا ثم انفصلنا ورحنا نتجول في الحجرة وهو يقول: إنني أعترف وأقبل كل شيء.

جلس بارتباك فوق مقعد منخفض بالنسبة له فتقوست قدماه واتخذت أنا مكاني فوق الأريكة وقال: جميل أن تكوني هنا في هذه الحجرة، فإنني أتسكع في هذه المدينة القذرة منذ الخميس ... إنني أتذكر ليلتي الأولى هنا وأنت في ثياب النوم الحمراء المرسوم عليها قليل من النقوش ... أليس كذلك؟

... أتذكر أنك فتحت الباب يومها دون خوف من الرجلين الأسودين الغريبين الواقفين أمام بابك.

لم أعرف يومها سبب زيارتهما ... هل هي النقود؟ ... إن ريبا يرد أحيانًا النقود، وفي أحيان أخرى لا يردها حتى إنني لا أتذكر إذا كان مدينًا لي الآن بشيء أم لا.

قلت من فوق أريكتي المريحة: إنني أعرف ريبا ولقد رأيته من قبل ذلك.

قال: لكنني كما لاحظت فإنك لم تعرفيه ولم تستطيعي التعرف عليه، ورغم ذلك فقد طلبت منا بأدب أن ندخل، ثم تناولت أنا بعض الطعام البارد المتبقي من عشائك يا ليز.

ابتسم وهو يعاود الاقتراب مني وراح يتملقني ويمدح طبيعتي الطيبة حتى ناداني قائلًا: ليزي.

لقد استخدم اسمي بطريقة غير مناسبة وغير متقنة، لكنها كانت طريقة ظريفة على أية حال، فتذكرت فتيات المطبخ اللاتي يصنعن من أسمائهن أسماءً أخرى جميلة.

قلت بسخرية: لم يكن لديَّ أي شيء آخر أقوله سوى السماح لكما بالدخول.

أبصرت خلف عينيه مرة أخرى بعض الكلمات الذكية التي لم أعرفها، وكان شجاعًا هذه المرة في محاولته، فلم أعرف ما ينبغي أن أقوله وأصابني الارتباك لما كان يريده مني.

تحرك بتثاقل فوق المقعد المنخفض ودارت عيناه إلى أعلى بحركة ضاغطة من رأسه، فبدا كما لو أن شخصًا ما قد سلط عليه الضوء، كان نوعًا من التمثيل الصامت لليأس من جانبي حين تنهد وأوشك على الحديث، فتراجع عن تنهداته وأشار بيديه إلى ارتعاشة عضوه، وهكذا تأكدت من وجود شيء ما حقيقي كان يخفيه خلف سلوك طيب.

إنه إحساس هذا الثور الأسود الشاب في المتجر الصيني الأبيض بوجباته القليلة اللذيذة وأرفف الكتب والخزف الصيني القديم وتبادل الأحاديث أثناء تناول القهوة.

قال: تلك الأيام القليلة ... لقد فكرت كثيرًا في تلك الأيام القليلة من الصباح وحين الليل، هنا وهناك ... لقد كان وقت ...

انتظرت أن يواصل حديثه، فلم أقل شيئًا حتى استطرد قائلًا: ليتنا نُبقي على أي شيء ونحافظ عليه ولا نبخل على الشباب بالرعاية الكافية ... إن كل القضايا الآن في كيب الشرقية ويوجد محامون يمكننا أن ندفع لهم.

رمقني بنظرة سريعة، فحركت رأسي وقلت: لقد اتهموا ما يزيد على العشرين من رجال المنظمة الأفريقية السياسية بالتخريب هذا الأسبوع كما جاء بالجريدة، ومثل هذه الحالات كثيرة جدًّا، لكن الأمر المؤسف أنهم لم يبدءُوا في محاكمة المعتقلين منذ عام مضى إلا هذه الأيام، وكأن ممثل الدفاع لا يطالب بوجود محامين للدفاع عنهم ... إن العقل الأبيض عقل منظم يتعامل مع النكبات من خلال القنوات الرسمية.

رفع يديه وقال: لا ... إنهم يفعلون ولكن في حدود معينة، ولا يخلو الأمر من مختلف أنواع العقبات كما تعرفين ... إنه ليس دفاعًا شرعيًّا بقدر ما هو خاضع لأشياء أخرى تتعلق بالعائلات وخلافه.

سارع بعينيه الهادئتين البيضاوين في التطلع نحوي وظل هكذا لحظة تلاشى خلالها الاتصال بيننا فقلت: توجد مشاكل أخرى.

لم يدرك شيئًا رغم أن الحقيقة كانت واضحة في نظراتي ثم أضفت قائلة: قليل جدًّا هو ما أعرفه هذه الأيام؛ ولذلك تجدني مضطرة لتصديق ما تقوله الصحف فلا شيء، يحدث في الضواحي كما أن الأعمال السرية متوقفة في الوقت الحاضر.

كان لوقا يعرف أننا نحن معشر البيض نحب ذلك الشعور بأننا على صواب مما يجعلنا مصدر ثقة، فراح يتملقني مرة أخرى قائلًا: نعم هو كذلك وهذا كل ما تعرفينه يا ليز وكل ما تحتاجين لمعرفته.

توقف قليلًا ثم قال فجأة: أتتذكرين الكولونيل «جيسفورد»؟

ضكت وأوشكت على القول: يا إلهي ... ذلك المسكين غريب الأطوار.

لكنني لحسن الحظ لم أقل شيئًا، فقد قاطعني مستطردًا: كان عجوزًا متشامخًا وأحد أفضل أصدقائنا ... لقد كان صديقًا حقيقيًّا.

تحدث لوقا بنفس طريقة الكولونيل الطيب الذي كان أسلوبه تبشيريًّا وكانت طيبته تتمثل في عدم إدراكه للحقائق ... لقد سجنوه في العام الماضي لأنه لم يدرك أثناء قيامه بإدارة الصندوق الخيري أنهم يستخدمون أموال الصندوق في إبعاد الناس عن البلاد وتدريبهم على الأعمال الحربية.

عرفت أن شعور لوقا تجاه الرجل العجوز — الذي استخدموه بطريقة مخزية — كان شعورًا حقيقيًّا حين قال: أود أن أقول لك إنه ليس يسيرًا تعويض مثل هذا الرجل ... أعني أنه لم يعد لدينا سوى القليل من الناس الذين يستطيعون مساعدتنا.

ذكر اسمين أحدهما هرب من البلاد والآخر تحت الحراسة، وعندئذٍ أدركت السبب الذي جاء من أجله، فلقد كان مستحيلًا بالنسبة للرجل الثاني أن يتولى أمر النقود، فقلت: أما زالت النقود تدخل إلى البلاد؟

لم أكن شغوفة بمعرفة الإجابة عن هذا السؤال لكنه نجح في استدراجي.

أجاب: الدخول ... نستطيع ذلك بقليل من الترتيبات ... يا إلهي الطيب ... ليتك تعرفين يا ليز ما حاولت القيام به في الأيام القليلة الماضية ... لقد قاتلت من أجل ترتيب شيء ما لكن العقبات ظلت تلاحقني أينما ذهبت.

قلت: إن الأمر خطير! ... ألا تعتقد أنهم يعرفون كل شيء عنك؟

ابتسم وقال: إنه شيء بسيط يا ليز، فنحن نريد شخصًا يملك حسابًا في البنك، فهل تعرفين مثل هذا الشخص؟

أغمض عينيه الكبيرتين نصف إغماضة في انتظار إجابتي فقلت: لا أعرف أي شخص، وماذا عن الكولونيل؟ ... أعتقد أن أي شخص سيتولى أمر النقود فإنه لا بد سيلقى نفس المصير الذي لاقاه العجوز جيسفورد.

– لا أعتقد ذلك، فلقد فهمنا الآن كل شيء وتداركنا الأمر.

ثم أضاف في محاولة منه لمزيد من التأكيد والاطمئنان كما يفعل أمثاله دائمًا: لن نستخدم حساب أحد أكثر من ستة أشهر.

ظل ينظر نحوي بنصف ابتسامة وقد داهمه شعور بالرضا لعدم قدرتي على الإفلات منه، لكنني قلت بطريقة عبثية: أنت لا تفكر فيَّ بالطبع!

فهم طريقتي العبثية هذه على أنها محاولة أخرى في المراوغة مما جعلني أشعر كما لو أنني أخفي شيئًا، ولكن أي شيء؟ ... إنني حقيقة لا أملك نقودًا ولا تأتيني أموال من الخارج، ولا شيء في البنك سوى فائض قليل لا أستطيع به مواجهة الديون.

ضحكنا أخيرًا لكنني أدركت بسهولة ما كان وراء ضحكاته ... لقد كان هدفه باقيًا، ولم يكن الضحك سوى وسيلة.

قال: آه ... استمري يا ليز.

أخبرته أنه لا بد مجنون، فكل الذين أعرفهم لا يملكون شيئًا، كما أنني خارج تلك الدائرة من الناس الذين يقصدهم منذ زمن بعيد لكن كل ما قلته بدا له بلا معنًى رغم أنني لم أتفوه بسوى الحقيقة.

واصلنا حديثنا بشكل مجرد، لكن كلينا كان يفهم الآخر ولم يتوقف لوقا عن مداعباته وتملقه وصوته الخفيض الذي يوحي برغبته الجنسية.

قلت: سأفكر بالأمر، وإذا وجدت شخصًا ما سأخبرك.

أخبرني ببعض التفاصيل الأخرى القليلة، وأثناء ذلك كنت أفكر بجدية، ففقدت السيطرة على أعصابي شعرت بنفس الشيء الذي يجتاحني عندما تعتريني رغبة جنسية ... لقد تذكرت حساب جدتي ... إن لديها أرباحًا تدخل في حسابها ولديَّ توكيل منها، وأخشى أن يعرف لوقا بطريقة ما، وعندئذٍ عرفت أنني لم أقل الحقيقة كاملة لأنه بمقدوري أن أفعل شيئًا ما، ولأن هناك ما أخفيه الآن ... انتابني إحساس أنه — بطريقة ما — كان يعرف منذ البداية أنني أملك حلًّا ... ربما هو إحساس الأسود الدائم بقوة الأبيض التي قد تتمثل أحيانًا فيما يرثه من حلي ومجوهرات.

قلت له دون الإشارة لشيء: لا أستطيع أن أعدك بشيء، لكنني قد أتذكر شخصًا ما رغم أنني أشك في ذلك.

شعر بالضيق وبدا كالطير حين ينقض على البعوض، فاعترض قائلًا: إنه لأمر مدهش ... إن أيادينا مقيدة ... إن النقود هناك في لندن، وها نحن منذ ثمانية شهور لا نستطيع الذهاب إلى هناك ... إننا مقيدون.

– سأتدبر الأمر وسوف أخبرك.

– هل ستخبرينني؟

قلت: نعم، سوف نبقى على اتصال.

كنا نكرر دائمًا أننا سنكون على اتصال كلما جاء لزيارتي، وأحيانًا كان يمضي وقت طويل دون تحقيق ذلك، لكنه هذه المرة سوف يعود بالتأكيد، وعندئذٍ سأخبره بعدم عثوري على أي شخص، ولن أنسى أن أقدِّم له أسفي الشديد.

قال: غدًا مساءً؟

ضحكت من نفاد صبره وأجبت: لا أعتقد، فإنني أريد فرصة لأفكر.

قال بمودة: وهو كذلك، فليكن الثلاثاء أو الأربعاء على الأكثر، فأنا — كما تعرفين — يجب أن أعود ولا أستطيع البقاء هنا مدة طويلة.

ظل ينظر إليَّ بطريقة عريس معجب بنفسه كما لو قمت ببعض حركات الإغراء، فانجذب نحوي.

تقدم نحوي وشدني بيده من فوق الأريكة ثم قال: من الأفضل أن أنصرف لكي تنامي.

كنت أشعر بالبرد وأطوي ذراعي حول جسدي فسألني: ماذا ستفعلين الآن؟

ثم تنقل بنظراته في الحجرة مرة أخرى وأضاف: هل ستكلمين صديقك في التليفون؟

نظرك إليه وابتسمت: إنه نائم الآن ومنذ فترة طويلة.

توجهنا نحو الباب ونحن نتحدث بهدوء، وعندما فتحت الباب كان الضوء لا يزال منبعثًا من خلف زجاج باب الشقة المقابلة، فأشرت له بالوداع وكدت أن أضحك حين سمعت نعل حذائه يطقطق، لكنه قطب عن جبينه، وفي محاولة للتعبير عن أسفه وضع كف يده فوق مؤخرتي لحظة قصيرة وكأنه يقول: ادخلي.

الفصل السابع

وهكذا ذهب أورفيوس[1] بسترته الحديثة عائدًا إلى مجموعته الكبيرة التي تنتظره في مكان ما خارج المدينة، وقد كان شيئًا يبعث على الراحة نوعًا ما أن يترك خلفه يوريديس الشاحبة وأسرارها القديمة وظلال حياتها المؤمن عليها.

كان جراهام قد علمني عدم المخاطرة، وكانت كل الأشياء في هذا الوقت من الليل تبدو وكأن رياحًا عاتية قد عصفت بها، فوقفت فوق أرض الشقة الفارغة لا أدري إلى أين وإلى أي شخص يمكنني الذهاب.

تفتحت براعم الزهور وكانت هي الشيء الوحيد الذي يتنفس في الحجرة، غير أنها ستموت أيضًا مع حلول يوم الاثنين ... وضعت وجهي في مواجهة زهور اللبن الثلجية الباردة بحركة نصف مسرحية.

فكرت في الخروج والذهاب إلى أحد تلك النوادي عند حافة التل، حيث يمكنني مقابلة بعض الناس الذين أعرفهم، والذين اعتادوا على ارتياد هذه الأماكن في ليالي السبت كما يحلو لي أن أفعل أحيانًا عندما يعود جراهام لبيته ... كنت أرتدي معطفي وأضع أحمر الشفاه وأتوجه لأحد تلك الأماكن الصاخبة المظلمة التي لم يدخلها أبدًا، حيث يتطلع الرجال الألمان والإيطاليون إلى حياة الشارع في أوروبا، وحيث يمارس شباب جنوب أفريقيا الأبيض مع فتياتهم لونًا من ألوان الحياة الرخيصة المتواضعة، كما توجد العاهرات السوداوات عند جانب الطريق، وأولئك القوادون الذين يحومون حول المكان بحثًا عن الراغبين.

---

[1] أورفيوس Orpheus: في الأسطورة الإغريقية هو موسيقي تبع زوجته يوريديس إلى مثوى الأموات، وحين أثارت ألحانه إعجاب بلوتو أجاز له أن يخرجها من ذلك المثوى شريطة ألا ينظر خلفه، لكنه فعل في اللحظة الأخيرة ففقدها. (المترجم)

داخل بعض هذه الأماكن يعزف بعض الشباب على القيثارة، وعندما يبدءُون بأغنية «سوف ننتصر» ينضم إليهم الجميع ويشاركونهم الغناء كما يحدث مع أغنية «حبيبتي ترقد فوق المحيط».

كان ينبغي أن أصطحب جراهام إلى تلك الأماكن ذات مرة لكنني رأيت ذلك اعتداءً على حياتي الخاصة.

تركت كل شيء في الحجرة كما هو ... شرائح البصل المتجمدة في الأطباق، فوطة المائدة التي وقعت على الأرض عندما استدار لوقا بعيدًا عن المائدة، قِطع الجبن لكي تتسلق إليها الفئران وذلك القرد الراقد فوق الأريكة ... إن سامسون سينظف كل شيء غدًا في مقابل شلنين ونصف إضافية وسيزيل المخلفات داخل علبة المربى القديمة.

دهنت وجهي بالكريم مثلما أفعل كل ليلة بنفس العناية والاهتمام اللذين ينظف بهما الرجل بندقيته بعد استخدامها ثم استلقيت فوق السرير في الظلام استعدادًا للنوم، وقلت لنفسي: لعله يتحدث معهم الآن باللغة التي لا أفهمها مستخدمًا علامات التعجب ولحظات التوقف من أجل التشديد على اللفظ ... لا بد أنه الآن يحكي لهم عن وجود امرأة بيضاء سوف تقوم بالعملية غير أن ذلك هراء؛ إذ لا يوجد سبيل لمعرفة شيء عن حساب جدتي ... لقد ذهب لوقا وسوف يعود في خلال ثلاثة أو أربعة أشهر، وحينئذٍ سيبدو الأمر كما لو أن كل شيء وجد طريقه للحل، فالأفارقة — بحكم فطرتهم — يتمتعون باللباقة في مثل هذه الأمور.

كان لوقا يعرف أن كل ما قلته عن محاولة التفكير في شخص ما وإعطائي مهلة من الوقت ليس إلا وسيلة لحفظ ماء الوجه بدلًا من الرفض ... إنه يعرف ذلك وينبغي أن يعرفه جيدًا، ولا بد أنه في المرة القامة سيطلب مني شيئًا آخر قد يكون خمسة جنيهات مرة أخرى، وربما تكون وجبة من الطعام وعندئذٍ لن يستطيع تكرار ما طلبه في المرة السابقة.

كانت الأضواء الأمامية لإحدى السيارات تتسلل ببطء داخل الحجرة، وكأنها فراشة شاحبة فاعتدلت لمتابعتها، لكن الظلام عاد مرة أخرى غير أن ضوءًا آخر قد يكون صادرًا من مصباح الشارع رسم لوحة متمايلة كأنها ظل شجرة ما فوق سطح المياه، لكن مياه البحر ثقيلة ومظلمة ولا يوجد ضوء تحت الماء حيث يرقد ماكس في الأعماق ... لقد اختار ماكس بنفسه الذهاب إلى الأعماق وكان ذلك هو اعتقاده الأخير ... إنهم يحاولون الآن استرداد الحقيبة المليئة بالأوراق والمستندات لكن الصحيفة في طبعتها الأخيرة المليئة بأخبار رواد الفضاء لم تذكر شيئًا عن ماكس.

يجب أن أحتفظ بالصفحة الأولى بما فيها من صور لكي أرسلها إلى بوبو، وليتني أتذكر ذلك في الصباح.

كنت أجهل الوقت لكن كثافة الظلام وطبيعة الهدوء في ذلك الوقت كانتا توحيان باقتراب الصباح ورغم ذهابي للنوم في وقت متأخر إلا أنني بدوت وكأنني مستيقظة من نوم عميق وطويل، وكنت أسمع بوضوح طرقعات عربات القطار القادمة من مخزن السكك الحديدية على بعد ميلين ... لم أتوقف عن التفكير بعمق وجدية منذ اللحظة التي استيقظت فيها وكانت قدراتي يقظة تمامًا مثل حساسية سمعي وكأن شيئًا قد ترسب في عقلي أثناء النوم ... كانت عضلاتي مشدودة جدًّا فرغبت في التحرك، لكن قد تثمر سحابة من الغيم كتلك التي تحدثها عاصفة الثلج فوق مكتب بوبو ... لم أكن أدري شيئًا عن الوضع الذي أرقد فيه وكنت مشرقة وواضحة وضوح السمكة داخل طاسة ناصعة.

كان الرجل يسير في الفضاء متنقلًا من المحيط الهادي إلى المحيط الأطلنطي في عشرين دقيقة في نفس الوقت الذي غرق فيه ماكس، ولكن لماذا الصعود إلى القمر؟ أهو الحنين القديم للخلود المشابه لكل رغباتنا في التفوق وقهر العجز الإنساني؟! ... ربما ... غير أن الليلة بدون قمر وإلَّا لما أصبحت الحجرة مظلمة هكذا ... إننا نعتقد بوصولنا إلى القمر في التفوق على حدود حياتنا، أي التفوق على الموت مثلما نحاول أن نتسيد البيئة لكي نبقى على قيد الحياة لكنها سيادة خادعة لا تتعدى زيادة قليلة في عمر الإنسان كما يحدث مع جدتي العجوز باستخدام الأدوية ... لقد تعلمنا كيفية أن نبقى أحياء حتى يحين موعد الموت.

يمكن للإنسان النزول بعد الحب أو الصعود بعد القمر وإذا ما حقق شيئًا خارج نطاق بيئتنا الطبيعية أفلا يصبح معقولًا أنه وصل إلى ما وراء حقيقة الموت؟ وألا يبدو وصول أولئك الرجال للقمر تصورًا مسبقًا للسيادة؟ ... إنهم هناك على قيد الحياة ... مشهد للعمليات هام ودال على معنى ونحن ندعو ذلك اللاشيء فوقنا بالسماء التي هي سقف بيئتنا، وجزء من ترابنا وكينونتنا وشاهد على لحظاتنا التي تبلغ سبعة وثمانين عامًا مثل لحظات جدتي، أو واحدًا وثلاثين عامًا مثل لحظات ماكس الذي كان سيبلغ الثانية والثلاثين في الشهر القادم ... ذلك اللاشيء الذي رأيته بنفسي من الطائرة فيما وراء طبقة السحاب التي تغلف الجو هو ما ندعوه بالفضاء ... إن رائد الفضاء الآن قادر على اجتياز السماء والدخول في عالم الفضاء وإذا كان الله هو أساس الأبدية، أفلا يكون هذا الرجل قريبًا من الله هذه الليلة؟ أفلا يكون أكثر قربًا من ماكس الذي يحاول الحب في قاع البحر؟

... إن الديانات رغم كل شيء تعلمنا أن مملكة الله ومملكة الروح ليست من هذا العالم، أما الطبيعة البشرية فهي من هذا العالم، والموت من هذا العالم أيضًا، غير أن الموت يقودنا إلى الحياة الأبدية.

إن الفضاء أيضًا ليس من هذا العالم وليس المرء في حاجة لأن يموت كي يدخل الحياة الأبدية، وإلا فليس مدهشًا وجود ذلك الاتصال العميق بين خلود الله ولا محدودية الفضاء؟ ... إن بعض العلماء يحاولون في الحقيقة إثبات أنهما نفس الشيء، لكن كل الناس تقريبًا تعتقد في وجود شيء ما كما تعلموا من الأساطير الدينية ومن خلال اندفاعهم الثوري بحثًا عن أشكال تفوق طبيعة الحياة.

إن ما يحدث هناك في الأعالي قد يكون تعبيرًا روحيًّا لأعمارنا لا ندري عنه شيئًا واكتشاف الفضاء ليس منهجًا وإنما هو دين جديد ... بعيدًا عن غشاء الكرة الأرضية ... هناك بعيدًا عن هذا العالم ... النزول إلى قاع البحر ... اللانهائية ... الأبدية.

هل استطاع أي شكل من أشكال العبادة التي نمارسها منذ زمن طويل أن يعبر بشكل أكثر إلحاحًا عن الحنين إلى الحياة بعد الموت أو الحنين إلى الله؟

لا بد أن النوم غلبني لحظة ... أوه ... إن لوقا سيعود فلا يوجد سبب لعدم عودته ودفتر الشيكات موجود في الدرج الشمالي من دولاب ملابسي على بُعد ثلاث أقدام، وبمقدوري استخدامه لأنني أملك توكيلًا عن جدتي لكن إجراءات تحويل النقد الأجنبي تأخذ وقتًا بعد استيفاء بيانات الاستمارة والتحري عن المصدر وطبيعة رأس المال وأشياء أخرى كثيرة حدثت معي مرة أو مرتين لا أستطيع أن أتذكرها ... لا بد أن لوقا يعرف كل شيء، فقد أخبرني أننا لسنا في حاجة لأي شيء سوى حساب في البنك مثلما حدث مع الكولونيل جيسفورد، ولا بد أيضًا أن جراهام يعرف جيدًا كيفية التعامل مع البنوك، لكنني لا أستطيع أن أسأله أبدًا بخصوص هذا الأمر رغم أنه هو الذي قام بإجراءات جواز سفري في العام الماضي بعد أن كنت ممنوعة من استخراجه لمدة سنوات ... إن جراهام محدد في علاقاته ويمكنه القول ببساطة: امرأة في وضعك!

كانت هناك دائمًا بعض الإجراءات التي أجهلها وبعض الوعود التي لا أستطيع الوفاء بها، ولكن لو أنها ستة أشهر فقط كما قال لوقا لاختلف الأمر، فحساب السيدة العجوز في البنك ولا أعتقد أن أحدًا سيفكر به، كما أن جدتي على وشك الموت ولا تستطيع أن تدرك ما يحدث ... إنني أيضًا أحمل توقيعًا باسم فان دن ساندت، ولكن لماذا ينبغي أن أفعل مثل هذا الشيء؟

يبدو لي أن الإجابة ببساطة هي حساب البنك ولا أجد تفسيرًا لذلك ... إنه فقط حساب البنك وذلك شيء جيد بما يكفي ... إنني فعلًا غير قادرة على تفسير أي شيء تمامًا كما يحدث مع بوبو حين يجيب على أحد الأسئلة قائلًا في كلمة واحدة: لأن.

هل سأعمل بالسياسة مرة أخرى؟ وأي نوع من العمل السياسي سأقوم به إذا حدث ذلك؟ ... لا ... لا أعتقد فلست على استعداد لمضايقة نفسي بمثل هذا العمل الذي يعد عملًا في غير محله.

إن لوقا يعرف ما يريد ويعرف الشخص الذي يجب أن يلجأ إليه وهو بالطبع على صواب، فالمرأة البيضاء المتعاطفة لا تملك ما تقدمه له سوى تلك الامتيازات وذلك الرصيد في البنك.

سيعود لوقا بملابسه المليئة برائحة الدخان وقد يمارس الحب معي فور عودته أو في إحدى المرات التالية كما توحي بذلك الصفقة، لكنه لن يرد القروض التي أخذها مني؛ إذ إنه لا يملك شيئًا يقدمه لي سوى الغرور والأكاذيب.

قلت لنفسي: من الأفضل إذن أن أوافق ... يجب أن أمنحه فرصة مضاجعتي وعندئذٍ لن يصبح أحدنا مدينًا للآخر، وعلى أية حال قد تكون هذه رغبتي ... لست أدري غير أن ذلك سيكون أفضل شيء حصلت عليه، كما أنه شيء أريده الآن، فهل يستطيع أحد ألَّا يسميه حبًّا؟

إن المرء لا يستطيع أن يفعل أكثر من تقديم ما يملك!

كنت أعتقد في قدرتي على سماع النجوم وهي تتجول في مداراتها وذلك الطنين الهائل النابض بالحياة القادم من الأعالي، والذي يدعونه بموسيقى الكرة الأرضية، لكنه الليلة يبدو لى وكأنه رحلة الأمريكان إلى الفضاء وصوت محاولاتهم في اكتشاف أكبر دائرة ممكنة.

ظللت مستيقظة فوق السرير وقتًا طويلًا وكان جسدي ممددًا ... حاولت أن أعرف الوقت لكن ساعة السفر الحمراء الكبيرة التي أهداني إياها بوبو فقدت صلاحيتها ولم تكن هناك ساعة أخرى في الحجرة، غير أن دقات قلبي البطيئة كانت ترن في أذني كالساعة وكأنها تخبرني بأنني ما زلت خائفة، وأنني ما زلت أحيا.

هنداوي